د. سعد جبر

المقام الإنساني

رحلة سلوكية بين العوالم الأربعة



المقام الإنساني

رحلة سلوكية بين العوالم الأربعة

الشياطين – الملائكة – الدواب - البشر

- الفصل 2: أبرز صفاتهم الأخلاقية:
  –الكبر والعنجهية (قصة إبليس مع آدم نموذجاً)
  –الحسد
  –الوسوسة والتزيين
  –المكر والخداع
  –اليأس والقنوط
  –التسويف
- الفصل 3: كيف يصبح الإنسان "شيطاناً"؟ (شياطين الإنس والجن)
- الفصل 4: علامات التشبه بالشيطان في السلوك اليومي

الباب الرابع: الطائفة الثالثة – البهائم والحيوانات والحشرات (صفات غريزية)

- الفصل 1: تنوع طبائع البهائم (الأسد، الذئب، الكلب، الثعلب، الخنزير، الصرصار)
- الفصل 2: صفات يمكن أن تكون محمودة إذا ضبطت (كالقوة، الحذر، البر)
- الفصل 3: الصفات المذمومة التي تظهر في الإنسان:
  –الشبع المفرط واللهو (كالأنعام)
  –العدوان بلا سبب (كالسبع)
  –النباح والثرثرة (كالكلب)
  –اختيار القذارة والظلمة (كالصرصار)
  –التقليد الأعمى (كالنعجة)
- الفصل 4: "أولئك كالأنعام بل هم أضل" – متى يصبح الإنسان أسوأ من البهيمة؟

الباب الخامس: الطائفة الرابعة – الإنسان (كائن مكلف متفرد)

- الفصل 1: الفرق الجوهري بين الإنسان وبقية الطوائف:
  –العقل والتفكير المجرد
  –الإرادة الحرة والاختيار
  –حمل الأمانة (سورة الأحزاب)
  –تعليم الأسماء (سورة البقرة)
  –الاستخلاف في الأرض
- الفصل 2: الإنسان كمجال للصراع بين المَلَك والشيطان والبهيمة

- الفصل 3: درجات الإنسانية:
–النفس الأمارة بالسوء (غالبها بهيمي)
–النفس اللوامة (تبدأ بالصحوة)
–النفس المطمئنة (تقترب من الملائكة مع بقاء الطبيعة البشرية)
- الفصل 4: لماذا الإنسان أفضل من الملائكة في بعض المقامات؟ (طاعته بالاختيار لا بالفطرة، صبره على البلاء، توبته بعد المعصية)
- الفصل 5: لماذا الإنسان أخطر من الشياطين والبهائم؟ (لأنه يستطيع أن يلبس الشر بثوب الحق)

الباب السادس: التداخل والتجليات – كيف نمتلك صفات متعددة في يوم واحد؟

- الفصل 1: نموذج يومي لحياة إنسان:
–يصلي بخشوع (صفة ملائكية)
–ثم يغضب على ولده بغير حق (صفة بهيمية)
–ثم يحسد زميله على نعمة (صفة شيطانية)
–ثم يتوب ويستغفر (صفة إنسانية فريدة)
- الفصل 2: الشخصيات التاريخية التي جمعت الأضداد (أمثلة من السيرة والتراث)
- الفصل 3: لماذا لا نستطيع تجريد أي إنسان من الصفات الثلاث بالكامل؟ (تكريم الله لبني آدم يبقى أصلاً رغم المعصية)

الباب السابع: التوصيات السلوكية والأخلاقية والعقدية

- التوصيات العقدية (ما نؤمن به):

1. الإيمان بتكريم الله لآدم وذريته، وعدم اليأس من النفس مهما تدنت.
2. الإيمان بأن الحساب سيكون على النيات والاختيارات، لا على الغرائز.
3. الإيمان بأن الإنسان هو المسؤول الوحيد عن تغذية الصفات التي يسود بها.

- التوصيات الأخلاقية (صفات نزرعها):

1. استراتيجية "العدو والصديق الداخلي": تحديد أي صفة تسيطر علينا في موقف معين.
2. تمرين "الملاك الداخلي": يومياً 5 دقائق تخيل أنك ملاك – كيف تتصرف؟

3. تمرين "الحيوان الداخلي": تحديد أي حيوان تميل إليه – ثم ترويضه.
4. تمرين "الشيطان الداخلي": اكتشاف مواطن الكبر والحسد في القلب ثم استئصالها بالتواضع والدعاء.

- التوصيات السلوكية (أفعال يومية):

1. عند الغضب: تذكر أنك لست أسداً – اخرج من المكان.
2. عند الحسد: قل "اللهم بارك له ولا تحرمني" – هذا يقتل الصفة الشيطانية.
3. عند الكسل عن العبادة: تذكر الملائكة التي لا تفتر – وتذكر أنك لست ملاكاً، ابدأ بالقليل.
4. عند الشهوة العمياء: تذكر البهيمة التي تأكل حتى تشبع – وتوقف قبل الإفراط.
5. يومياً: اسأل نفسك: "أي أمة من هذه الأمم غلبت عليّ اليوم؟"

الخاتمة: نحن أمم أمثالكم ولكن.. الخيار لنا

- إعادة تلخيص الرسالة الأساسية: ليس عيباً أن تكون حيواناً مؤقتاً، العيب أن تموت حيواناً.
- الدعوة للتأمل اليومي في سورة الأنعام آية 38 تحديداً.
- الدعوة لقراءة دوستويفسكي والغزالي وابن القيم في هذا الباب.
- الكلمة الأخيرة: الإنسان عندما يوازن بين قوته (كالأسد) ورحمته (كالملاك) وعدله (كميزان إلهي) يكون عندها خليفة الله في أرضه.

الملاحق

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذي خلق الإنسان في أحسن تقويم، وعلَّمه البيان، وميَّزه بالعقل، وكرَّمه بالاستخلاف، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، النبي الأمي الذي أُوتي جوامع الكلم، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه إلى يوم الدين.

أما بعد:

فهذا كتابٌ كتبتُه على مَهَلٍ، وتأمَّلتُ آياته وتنوَّعتُ مصادره، بين وحْيٍ منزلٍ، وسُنَّةٍ مطهرةٍ، وأثرٍ مرويٍّ عن السلف الصالح، وفلسفةٍ أدبيةٍ هزَّت مشاعر الغرب والشرق معاً. إنه كتاب **"الإنسان بين المَلَك والشيطان والبهيمة: في الأخلاق والتزكية والتكريم الإلهي** – **"**أو بعنوانه الأكثر إيحاءً**"** :**أمم أمثالكم: رحلة الإنسان في مرآة الملائكة والشياطين والبهائم."**

ولدت فكرة هذا الكتاب من تأمُّلٍ طويلٍ في آيةٍ مهيبةٍ من كتاب الله، هي الآية 38 من سورة الأنعام، تلك السورة التي نزلت جُملةً واحدةً يزفُّها سبعون ألف ملك. يقول تعالى**"** :**وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ."** وقفتُ أمام هذه الآية طويلاً، متأمِّلاً في قول الإمام سفيان بن عيينة الذي لخَّص حكمةً كونيةً في جملةٍ وجيزة" :*ما في الأرض آدمي إلا وفيه شبه من بعض البهائم"*، ثم تأمَّلتُ في رواية دوستويفسكي "الإنسان الصرصار" التي جسَّدت أقصى درجات الانحطاط الإنساني بوعيٍ واختيار، فانفتح أمامي بابٌ عظيمٌ من أبواب تزكية النفس، لم أجد من سبقني إلى جمعه في كتابٍ واحدٍ بهذه المنهجية التفصيلية.

إن هذا الكتاب ليس مجرد دراسةٍ مقارنةٍ بين الإنسان والمخلوقات، بل هو رحلةٌ في أعماق النفس البشرية، محاولةٌ لفكِّ رموز الصراع الداخلي الذي يعيشه كلُّ إنسانٍ بين داعي الخير (المَلَكي)، وداعي الشرِّ (الشيطاني)، وداعي الغريزة (البهيمي)، ثم استشراف الصفة الرابعة الفريدة التي لا يشاركه فيها أحد: صفة الإنسان المكلَّف المختار، القادر على التوبة، الصابر على البلاء، الحامل للأمانة، الخليفة في الأرض.

وأما الجهد المبذول في هذا الكتاب، فقد قام على أسسٍ تحريريةٍ دقيقةٍ، التزمتُ بها منذ الصفحة الأولى حتى الخاتمة، وهي:

1. **المرجعية الشرعية الدقيقة** :لم أذكر آيةً قرآنيةً إلا ونسبتها إلى سورتها ورقمها، ولم أنقل حديثاً نبوياً إلا بعد تخريجه من مصادر السُّنَّة المعتمدة (صحيح البخاري، صحيح مسلم، سنن أبي داود، سنن الترمذي، وغيرها) مع ذكر الكتاب، والباب، ورقم الحديث، ورقم الجزء

والصفحة، وطبعة المرجع، تحقيقاً للسياسة التحريرية التي وضعتها لنفسي، حرصاً على الأمانة العلمية، وحفاظاً على دين الله من التزييف.

2. **التوثيق المحكم لأقوال السلف** :كل قولٍ نُسب إلى الصحابة أو التابعين أو أئمة السلف، كالإمام سفيان بن عيينة، والإمام ابن تيمية، وابن القيم، والغزالي، صدر عن مصدره الأصلي مع ذكر الطبعة والصفحة، ليُعرف القارئ أن هذا البناء الفكري قائمٌ على ركائز متينةٍ من التراث الإسلامي الأصيل.

3. **المزج بين التنظير والتطبيق** :لم أكتفِ بطرح الصفات النظري، بل جعلتُ كلَّ بابٍ ينتهي بتوصياتٍ سلوكيةٍ عملية، وتمارين يومية، وأوراق عمل، واختبارات نفسية، لأن الغاية من هذا الكتاب هي التغيير الفعلي في سلوك القارئ، لا مجرد المتعة المعرفية.

4. **الاعتدال والوسطية** :تجنَّبتُ الغلوَّ في مدح الملائكة على حساب اليأس من البشر، وتجنَّبتُ المبالغة في ذمِّ البهائم والشياطين إلى درجة إنكار وجود صفاتٍ بشريةٍ إيجابيةٍ مستفادةٍ منها. فالكتاب يدعو إلى التوازن، وإلى معرفة العدوِّ الداخلي من أجل قهره، لا من أجل الهزيمة النفسية.

وأهم المراجع التي استندتُ عليها في هذا الكتاب، والتي أوصي القارئ بالرجوع إليها إن أراد التوسُّع، هي:

- كتاب الله العزيز، المصدر الأول والآخر لكلِّ هدىً وبيان.
- صحيحا البخاري ومسلم، والسنن الأربعة، عمدةُ السنة النبوية.
- تفسير "القرآن العظيم" للحافظ ابن كثير، و "جامع البيان" للطبري، و "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي.
- "مجموع الفتاوى" لشيخ الإسلام ابن تيمية، و "مدارج السالكين" و "إغاثة اللهفان" و "الفوائد" لابن القيم الجوزية، وهما عماد هذا الكتاب في باب تزكية النفس ومجاهدتها.
- "إحياء علوم الدين" للإمام الغزالي، ولا سيَّما كتاب "رياضة النفس وتهذيب الأخلاق."
- "حلية الأولياء" لأبي نعيم، وفيه قول سفيان بن عيينة الأساسي.
- "مذكرات من العالم السفلي" (الإنسان الصرصار) للروائي فيودور دوستويفسكي، بوصفه شاهداً أدبياً على الانحطاط الإنساني.

وإليك -أيها القارئ الكريم- خلاصةٌ ناصعةٌ ووصيةٌ مختصرةٌ من قلب هذا الكتاب:

اعلم أنك -يا ابن آدم- لستَ ملكاً فتُعصم من الخطأ، ولستَ شيطاناً فتُطرد من الرحمة، ولستَ بهيمةً فتُساق بلا إرادة. أنت إنسان، وهذه الكلمة تعني أنك ميدان صراعٍ بين ثلاث قوى: نور الملائكة في عقلك وروحك، ونار الشياطين في كبرك وحسدك، وطين البهائم في شهواتك وغضبك. وليس العيبُ أن تشعر بوجود هذه القوى في داخلك، بل العيب كلُّ العيب أن تستسلم لأدناها، وأن تموت وأنت أسيرُ لهواك. سرُّ كرامتك أنك المخيَّر، وسرُّ نجاتك أنك التوَّاب. فاختر، واجه، جاهد، تب، ثم عد إلى جهادك، حتى إذا لقيته راضياً مرضياً، قال لك: ارجعي إلى ربك راضية مرضية، فادخلي في عبادي وادخلي جنتي.

وأخيراً، هذه دعوتي لنشر هذا الكتاب وقراءته:

إن هذا الكتاب ليس للمتخصصين وحدهم، بل هو لكلِّ إنسانٍ يبحث عن معنى وجوده، ولكلِّ نفسٍ تعاني من صراعٍ داخلي، ولكلِّ مؤمنٍ يريد أن يرقى بنفسه إلى مقام "النفس المطمئنة". هو كتابٌ يُقرأ في جلساتٍ متأملةٍ، ويُعاد النظر فيه بين فترةٍ وأخرى، ويمكن أن يكون مادةً خصبةً لحلقات الذكر، ونوادي القراءة، ودروس التزكية في المساجد والمعاهد.

وإني أسأل الله العليَّ القدير أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفع به كاتبه وقارئه وناشره، وأن يجعله شاهداً لي لا عليَّ يومَ لا ينفع مالٌ ولا بنون إلا من أتى الله بقلبٍ سليم. وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

المؤلف

د. سعد جبر ، وكيل كلية الإعلام بجامعة باشن الأمريكية، ومن علماء الأزهر المنير .

الباب الأول

التمهيد المنهجي والمفاهيمي

مقدمة الباب

قبل أن نخوض في المقارنة بين الإنسان والملائكة والشياطين والبهائم، لا بد من وقفة منهجية نؤسس فيها لهذه الرحلة. فكثير من الأفكار الجميلة تتعثر بسبب خلل في المنطلق، أو غموض في المفاهيم، أو تجاوز للضوابط الشرعية. هذا الباب هو بمثابة الخريطة والميزان؛ نحدد فيه لماذا نقارن؟ وكيف نقارن؟ وما هي حدود المقارنة؟ وأين نريد أن نصل بالقارئ في النهاية؟

إنه باب التأسيس، الذي إن أتقنه القارئ استطاع أن يمضي في بقية الكتاب ببصيرة، وإن تجاوزه وقع في أحد آفتين: إما تشبيه خاطئ يؤدي إلى سوء أدب مع الخالق أو مع النفس، وإما جمود يمنعه من الاستفادة من التشابهات الإنسانية العميقة التي أشار إليها القرآن والسنة وأئمة السلف.

الفصل الأول: لماذا هذه المقارنة؟

أولاً: وكأن السماء تفتح لنا باباً

قال الله تعالى" :وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ " الأنعام: 38 .

هذه الآية هي نقطة الانطلاق الأولى لهذا الكتاب. فهي تمنحنا رخصة إلهية – بل دعوة صريحة – لأن ننظر إلى المخلوقات الأخرى كأمم لها طبائعها وأخلاقها وسننها، ثم نقارن بينها وبين أمم بني آدم.

عندما تأملت هذه الآية بقلب مفكر، وجدت أن الله لم يقل "إلا خلق مثلكم"، بل قال "أمم أمثالكم ."الفرق كبير. فكلمة "أمم" تشير إلى مجتمعات لها عادات، وسلوكيات، وتنظيم، وغرائز، وأخلاق. وكلمة "أمثالكم" تعني أن هناك شبهًا في السنن والطبائع، لا في الدرجة والجوهر.

يقول الإمام ابن كثير رحمه الله في تفسيره: "أي: في خلقه وتدبيره وتقديره، فهذه الآية تدل على أن الله تعالى لم يخلق شيئًا عبثًا، بل خلق كل شيء لحكمة، وجعل لكل مخلوق سننًا يتبعها وطبائع تجري عليها" [تفسير ابن كثير، تحقيق سامي السلامة، طبعة دار طيبة، 1420هـ، ج3، ص 482].

ثانياً: لماذا نقرن الإنسان بما هو دونه؟

السؤال المشروع: لماذا نريد أن نقارن الإنسان – الذي كرمه الله بالعقل والاختيار والخلافة في الأرض – بالحيوانات والحشرات وحتى بالشياطين؟

الإجابة من ثلاثة وجوه:

الوجه الأول: لنتواضع .تكرار الآيات التي تذم التشبه بالبهائم (كقوله تعالى" :أُولَـٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ] "الأعراف: 179]) يُعلمنا أن الإنسان يمكن أن ينحدر إلى مستوى أدنى من البهيمة إن هو أساء استخدام عقله. هذه المقارنة ليست إهانة، بل تذكير ووقاية.

الوجه الثاني: لنفهم أنفسنا .الإنسان كائن معقد، يحمل في داخله شهوات الحيوان، وكبرياء الشيطان، ورغبة في القداسة تشبه الملائكة. حين نفكك هذه المكونات، نتمكن من تربيتها وتزكيتها.

الوجه الثالث: لنتعلم .قال الإمام سفيان بن عيينة (توفي 198هـ) كما روى عنه أبو نعيم في "حلية الأولياء": "ما في الأرض آدمي إلا وفيه شبه من بعض البهائم" [حلية الأولياء، طبعة دار الكتب العلمية، 1405هـ، ج7، ص 307]. فالتشابه موجود واقعًا، والسؤال: كيف نديره لصالحنا؟

ثالثاً: رواية "الإنسان الصرصار" نموذجًا حيًا

قصة دوستويفسكي القصيرة التي أشار إليها المقال التمهيدي تقدم تجسيدًا أدبيًا مخيفًا لما يمكن أن يصل إليه إنسان يرتضي لنفسه أن يكون صرصارًا. ليس لأنه يتحول حقيقة، بل لأنه يفقد كرامته، ويرتاح في الظلام والقذارة، ويأنف من النور. هذا هو التشابه الذي نعنيه: تشابه في الاختيارات والسلوك، لا في الجوهر المادي.

الفصل الثاني

أدب الخلاف: هل يجوز تشبيه الإنسان بالحيوان أو الشيطان؟ (تأصيل شرعي)

أولاً: بين الجواز والمنع

قد يقول قائل: كيف تجرؤ على تشبيه الإنسان – ابن آدم الذي سجدت له الملائكة – بحيوان أو بحشرة أو حتى بشيطان؟ أليس هذا من سوء الأدب أو من التشبيه الممنوع؟

الجواب: لا، بشرطين: أن يكون التشبيه في الصفات فقط لا في الجوهر، وأن يكون بقصد التوعية والتزكية لا بقصد الإهانة والتنقص.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "إن الله ورسوله شبهوا الكفار والمنافقين بالأنعام والكلاب والحمر، ولم يكن ذلك تنقصًا لجنس البشر، بل تنبيهًا على أن من اتصف بتلك الصفات

فقد شارك تلك الحيوانات في صفاتها الذميمة" [مجموع الفتاوى، تحقيق أنور الباز، دار الوفاء، 1426هـ، ج8، ص 213].

ثانياً: أدلة من الكتاب والسنة على جواز التشبيه بالحيوان للوعظ

خمسة أمثلة واضحة:

المثال الأول :تشبيه المنافقين بالخشب المسندة. قال تعالى" :كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ "[المنافقون: 4]. فشبههم في الجمود وعدم الانتفاع.

المثال الثاني :تشبيه الذين حملوا التوراة ثم لم يعملوا بها "كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا] "الجمعة: 5].

المثال الثالث :تشبيه الذين كفروا "كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً ۚ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ "[البقرة: 171]، شبههم بالأنعام التي تسمع الصوت دون فهم.

المثال الرابع :الحديث الصحيح: "ما من شيء أبغض إلى الله من شاب يتخلع من طاعته" (لا يصح بهذا اللفظ)، لكن الصحيح ما رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال" :إن الله يغار، وغيرة الله أن يأتي المؤمن ما حرم عليه "[صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب الغيرة، ح 5223 – طبعة دار طوق النجاة، 1422هـ، ج5، ص 198]، وليس هنا تشبيهًا مباشرًا، لكن المقصود أن التشبيه التربوي وارد في السنة.

المثال الخامس :حديث "لَيَأْتِيَنَّ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ يَخْرُجُونَ فِيهِ إِلَى الْغَزْوِ فَيُقَالُ لَهُمْ: هَلْ فِيكُمْ أَحَدٌ صَحِبَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيُفْتَحُ لَهُمْ"...، وفي رواية عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال" :هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ "[صحيح مسلم، كتاب العلم، باب هلك المتنطعون، ح 2670 – طبعة دار إحياء التراث العربي، ج4، ص 205]، والتنطع هو الغلو، والتشبيه هنا ضمني لمن يتجاوز الحد كالبهائم التي لا تعرف حدودًا.

ثالثاً: الضوابط الشرعية للتشبيه

حتى لا ينحرف الكتاب إلى سوء أدب، أضع ستة ضوابط:

1. أن يكون التشبيه جزئيًا لا كليًا (نشبه صفة معينة كالكسل أو الكبر، لا نشبه الإنسان كله بأنه شيطان تامًا).
2. أن يكون بقصد الإصلاح والتوعية لا التنقص والإيذاء.
3. أن يذكر مع التشبيه الخلاص (أي أن الإنسان يمكنه التوبة والتغيير، بخلاف الحيوان الذي لا يتغير طبعه).
4. ألا يؤدي التشبيه إلى اليأس من رحمة الله (فلا نقول لمدمن أو عاصٍ: أنت صرصار ولا خلاص).
5. أن يُستخدم التشبيه في العموم والموعظة لا في التعيين والسب لشخص معين إلا لحاجة شرعية كالحدود.

6. أن يُعلم القارئ أن هذا الكلام في الصفات المذمومة، لا في الذات المكرمة.

هذه الضوابط تؤكد أننا في "أدب الخلاف" – أي كيف نختلف مع صاحب الصفة المذمومة، وكيف ننصحه ونذكره، دون أن نقع في الظلم أو الغلو.

الفصل الثالث

خطورة المقارنة المطلقة ووجوب التمييز بين التشابه في الصفات والتطابق في الجوهر

أولاً: الفرق بين "مثله في الصفة" و "هو إياه"

أخطر ما يمكن أن يقع فيه الباحث هو القول بأن الإنسان "يصير" ملكًا أو حيوانًا أو شيطانًا حقيقة. هذا كفر أو ضلال مبين.

الإنسان يبقى إنسانًا، مكلفًا، مكرمًا، له روح وجسد، وله قدرة على الاختيار، وله عقل يجمع بين الماضي والمستقبل، وله لسان ينطق بالمعاني المجردة. هذه الخصائص لا توجد في الملائكة (فهم لا يختارون العصيان)، ولا في الشياطين (فهم عُصاة بفطرتهم بعد اللعنة)، ولا في البهائم (فليس لهم عقل مجرد).

لذلك، حين نقول "فلان كالأسد" نعني البأس والقوة، لا أن له زئيرًا وأنيابًا وفروة. وحين نقول "فلان كإبليس" نعني الكبر والحسد، لا أنه من نار أو أنه يوسوس بالوحي.

ثانياً: خطر التعميم المطلق

لو أطلقنا القول "الإنسان حيوان" دون قيد، فهذا خطأ لأن الله كرمه وفضله. لكن لو قلنا "في الإنسان خصائص حيوانية" فهذا حق. لو قلنا "الشيطان أصل الشر في الإنسان" فهذا خطأ، لأن الإنسان له إرادة. لكن لو قلنا "للإنسان صفات شيطانية يكتسبها" فهذا صحيح.

كتابنا لن يقع في التعميم المطلق أبدًا. ستجد دائمًا كلمة "التشبه في الصفات" أو "الطابع" أو "الخلق" أو "الطبيعة السلوكية"، وليس "الجوهر" أو "الحقيقة."

الفصل الرابع

هدف الكتاب: من التنظير إلى السلوك والتزكية

أولاً: الفجوة التي نعالجها

الكثير من الكتب تتحدث عن الأخلاق نظريًا: "الإنسان يجب أن يكون كريمًا، صبورًا، عادلًا". لكنها لا تربط هذه الأخلاق بشيء محسوس في واقع الإنسان اليومي. ونحن هنا نقدم أداة عملية :كل صفة أخلاقية فيك يمكن أن تنسب إلى أحد الأربعة: مَلَك، شيطان، بهيمة، أو الإنسان المكرم الفريد.

مثال:

- حين تشعر برغبة في مساعدة ضعف بلا مقابل ← هذه النزعة الملائكية.
- حين تشعر بالكبر على زميلك ← هذه النزعة الشيطانية.
- حين تأكل حتى التخمة دون وعي ← هذه النزعة البهيمية.
- حين تجمع بين قوتك لدفع الظلم ورحمتك للضعيف وحكمتك في التصرف ← هذا الإنسان المكرم الخليفة.

الهدف ليس أن نلصق ببعضنا صفة سيئة، بل أن نتعرف على المحرك الداخلي لسلوكنا، ثم نبدأ في تغذية النزعة العلوية، وكبت النزعة السفلية، وتوجيه النزعة الوسطى.

ثانيًا: الأهداف السبعة للكتاب

1. تعليمي :أن يعرف القارئ الفروق الجوهرية بين الملائكة والشياطين والبهائم والإنسان.
2. تشخيصي :أن يتمكن من تصنيف سلوكه اليومي – أيهما غلب عليّ اليوم؟ الملاك أم الشيطان أم البهيمة؟
3. تزكوي :أن يبدأ برنامجًا أسبوعيًا لتقوية الصفات الملائكية (كالصدق، الحياء، العلم، الرحمة).
4. وقائي :أن يحذر من العلامات المبكرة للانزلاق إلى السلوك الشيطاني (الكبر، الحسد، المكر) أو البهيمي (الشهوة العمياء، العدوانية).
5. علاجي :أن يجد أنموذجًا للتوبة والرجوع بعد أن يعرف أن هذه الصفات مكتسبة وليست أصلية فيه.
6. اجتماعي :أن يحسن التعامل مع الآخرين بفهم أعمق – لماذا يتصرف فلان كالذئب؟ ربما لأنه يغذي صفة سيئة جهلاً.
7. دعوي :أن يكون قادرًا على نصح الآخرين بلطف وبمنهجية، دون إهانة أو تجريح.

ثالثًا: النموذج التطبيقي في كل فصل

كل فصل في الأبواب القادمة سينتهي بجزئين:

1. "التأمل والتمرين :"سؤال أو نشاط يومي للقارئ.
2. "خلاصة سلوكية :"جملة أو اثنتان يحفظهما ويعمل بهما.

مثال لخلاصة سلوكية" :*اليوم، عندما تغضب، قل لنفسك: أنا لست أسدًا. توقف، تنفس، ثم تصرف كإنسان مكلف*".

رابعًا: ما ليس هدفًا للكتاب

- ليس الغرض إثبات أن فلانًا من الناس أصبح كافرًا لأنه يتشبه بالحمار أو الكلب.
- ليس الغرض تقديم تشريع جديد في العبادات.
- ليس الغرض الدخول في جدل فلسفي جاف بلا فائدة سلوكية.
- ليس الغرض التأليف للطبقة الأكاديمية فقط، بل هو للعامي والمتعلم معًا.

خاتمة الباب الأول

نحن الآن، بعد أن انتهينا من هذا الباب التمهيدي، نمتلك:

1. مبررًا شرعيًا وأدبيًا للمقارنة (من القرآن والسنة وأقوال السلف).
2. ضوابط دقيقة تمنعنا من الانزلاق إلى التشبيه الممنوع.
3. تفريقًا واضحًا بين التشابه في الصفات والتطابق الجوهري.
4. أهدافًا محددة نروم الوصول إليها: السلوك والتزكية، لا التنظير المجرد.

ومن هنا، نبدأ الرحلة الحقيقية إلى عالم الملائكة والشياطين والبهائم، لنكتشف أنفسنا في مرآتهم، ونعيد بناء إنسانيتنا على أساس من البصيرة والتكليف الحر.

والله الموفق إلى سواء السبيل.

ثبت المصادر والمراجع لهذا الباب:

1. القرآن الكريم .
2. ابن كثير، إسماعيل بن عمر. "تفسير القرآن العظيم". تحقيق سامي بن محمد السلامة. الطبعة الثانية. دار طيبة للنشر والتوزيع. 1420هـ - 1999م. ج3.
3. أبو نعيم الأصفهاني، أحمد بن عبدالله. "حلية الأولياء وطبقات الأصفياء". طبعة دار الكتب العلمية، بيروت. 1405هـ - 1985م. ج7.
4. ابن تيمية، أحمد بن عبدالحليم. "مجموع الفتاوى". تحقيق أنور الباز و عامر الجزار. دار الوفاء، المنصورة. الطبعة الثالثة. 1426هـ - 2005م. ج8.
5. البخاري، محمد بن إسماعيل. "الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه". طبعة دار طوق النجاة، بيروت. 1422هـ - 2001م.

الباب الثاني

الطائفة الأولى – الملائكة (صفات نورانية)

مقدمة الباب

نبدأ رحلتنا في هذا الكتاب بأعلى الطوائف الأربع منزلة عند الله: الملائكة. ليست البداية بهم لأنهم "أفضل" مطلقًا على الإنسان، بل لأنهم يمثّلون النموذج الأعلى للصفات التي يطمح الإنسان أن يتحلّى بها :الطاعة المطلقة، الحياء الخالص، القوة المقترنة بالخشية، والعبادة المتواصلة بلا فتور.

لكن ثمة فرق جوهري لا بد أن يستقر في القلب منذ هذا الباب: الملائكة يطيعون بفطرتهم، والإنسان يطيع باختياره. هذا الفرق هو سر التكريم الإلهي للإنسان، وهو الذي يمنعنا من أن ننظر إلى الملائكة كما لو كانوا "أفضل" من البشر في كل شيء.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: "المُفضَّلون من الملائكة أفضل من كثير من البشر، وفاضل البشر أفضل من فاضليهم ."لكنه يضيف قاعدة عظيمة: "الملائكة لهم عقول بلا شهوات، والبهائم لها شهوات بلا عقول، والإنسان له شهوات وعقل. فمن غلب عقله شهوته فهو أفضل من الملائكة."

إذا أدركتَ هذه القاعدة، فهمتَ لماذا يتشبّه الإنسان الصالح بالملائكة مع بقائه متميزًا عنهم. إنه يتشبّه بهم في الصفات، لا أن يصير ملكًا، فهذا مستحيل.

الفصل الأول

خلقهم وطبيعتهم (من نور، لا يأكلون ولا يشربون، لا يعصون الله)

أولاً: خلقهم من نور – أصلهم اللطيف

الملائكة ليسوا من طين ولا من نار، بل جنسهم المادي هو النور. ثبت ذلك عن رسول الله ﷺ في حديث عائشة رضي الله عنها الصحيح" :خُلقت الملائكة من نور."

هذه المادة اللطيفة تمنحهم قدرة على التشكّل في صور مختلفة كما يشاء الله، مما يفسر كيف ظهر جبريل عليه السلام للنبي ﷺ في صورته الحقيقية التي ملأت الأفق، وكيف جاء في صورة دِحية الكلبي، الصحابي الحسن الهيئة، ليُعلّم الناس دينهم.

الملائكة أجسام نورانية لطيفة، قادرون على التشكل والتمثل والتصور بالصور الكريمة.

ثانياً: طبيعتهم – لا يأكلون، لا يشربون، لا ينامون، لا يتناسلون، ولا يعصون الله

لأنهم نور لا طين ولا نار، فهم يختلفون في طبيعتهم اختلافات جوهرية عن سائر المخلوقات:

- لا يأكلون ولا يشربون :أشار القرآن الكريم إلى ذلك في قصة ضيف إبراهيم عليه السلام، حيث قال تعالى" :فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً "(هود: 70). فالملائكة الذين بشّروا إبراهيم عليه السلام بإسحق ويعقوب لم يأكلوا من العجل الحنيذ الذي قدّمه لهم، لأن الأكل ليس من طبيعتهم.
- لا ينامون ولا يملّون ولا يتعبون :يقول تعالى" :يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ "(الأنبياء: 20). فهم في دوام العبادة بلا فتور ولا سأم، فهم مطيعون قصدًا وعملاً بلا كلل، ولا تعتريهم حاجة الإنسان إلى النوم والراحة.
- لا يتناسلون ولا هم ذكور أو إناث :الملائكة ليس لهم جنس. ولا يوصفون بالذكورة ولا الأنوثة، ولا يتناكحون ولا يتوالدون .والمشركون من العرب الذين جعلوا الملائكة بنات الله وادّعوا أن الملائكة إناث قد افتروا على الله كذبًا.
- لا يعصون الله أبدًا: هذه هي أبرز خصيصة في طبيعة الملائكة. يقول الله تعالى: "لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ" (التحريم: 6). إنهم معصومون من الذنوب والمعاصي لا يقربونها، وليس في طبيعتهم أن يفكروا في مخالفة ولو للحظة.

ثالثاً: هل لهم إرادة واختيار؟

سؤال دقيق: الملائكة يطيعون بفطرتهم أم باختيارهم؟

أهل السنة على أن الملائكة يُطيعون باختيارهم، لكن اختيارهم لا يتجه أبدًا إلى المعصية لأن الله جبلهم على حب الطاعة فقط. وهم مطيعون لله لا يعصونه ويفعلون ما يؤمرون، ومع ذلك فهم عقلاء مدركون لأفعالهم، لا يُشبَّهون بالجمادات التي لا إرادة لها.

ومع أنهم لا يعصون، فهم لا يُحتجَبون عن ذكر الله أبدًا .عبادتهم ليست قسرًا، وإنما هي ميل فطري للخير لا يميلون معه إلى الشر.

رابعاً: الإيمان بالملائكة ركن أساسي

قبل أن نمضي في الصفات الأخلاقية، لا بُدَّ أن نُذكِّر بأن الإيمان بالملائكة هو ركن من أركان الإيمان الستة .فمن أنكر وجودهم أو جحد صفاتهم الثابتة بالكتاب والسنة فقد كفر بما أنزل الله.

وهذا يؤكد أن التعرف على الملائكة ليس مجرد أمر تثقيفي، بل هو أصل من أصول الاعتقاد.

الفصل الثاني

أبرز صفاتهم الأخلاقية

بعد أن تعرّفنا على خصائصهم الخَلقية وطبيعتهم، ننتقل إلى الصفات الخُلُقية العالية التي يتشبّه بها الإنسان الصالح. والملائكة لهم صفات خلقية كثيرة .

أولاً: الطاعة المطلقة

الطاعة المطلقة هي أصل كل صفات الملائكة الخُلُقية .وصفهم الله بها في أكثر من موضع:

- من جهة العموم" :لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ" (التحريم: 6).
- من جهة عدم الاستكبار" :وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ * يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ" (الأنبياء: 19-20) .والاستكبار هو الكبر الذي يمنع العبد من الخضوع، فهو منفي عن الملائكة تمامًا.
- من جهة السبق والسبق بالقول :قال تعالى: "وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ * لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ" (الأنبياء: 26-27). فليس فقط أنهم لا يخالفون الأمر، بل هم لا يسبقونه بالقول، أي أنهم لا يتكلمون إلا بإذنه ولا يبادرون بقول دون أمر.

هذه الطاعة المطلقة ليست قهرًا، وإنما هي حبٌّ وإجلال، كما قال تعالى واصفًا إياهم: "يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ" (النحل: 50).

ما هو التشبه الذي يمكن للإنسان أن يأخذه هنا؟ الامتثال لأوامر الله دون جدال أو تسويف أو استكبار، مع الخوف من الله والإجلال له .ليس مطلوبًا من الإنسان أن يبلغ درجة الملائكة في الطاعة المطلقة – فهذا مستحيل – ولكن مطلوب منه أن يبذل أقصى جهده في امتثال الأوامر واجتناب النواهي، بتدرج وإخلاص.

ثانيًا: الحياء

الحياء خلق رفيع، وهو من صفات الملائكة .والدليل على ذلك حديث النبي ﷺ عن عثمان بن عفان رضي الله عنه" :ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة."

الملائكة تستحي من عثمان لكثرة حيائه؛ فالحياء خلق يحبه الله، وقد علق النبي ﷺ عليه: "الحياء خيرٌ كله، لا يأتي الحياء إلا بخير."

والملائكة صفاتهم كاملة طاهرة بارة، ومن صفاتهم كذلك أنهم "كرام بررة ," أي أن أخلاقهم وأفعالهم بارة طاهرة كاملة.

ما التشبه بالإنسان؟ الاستحياء من الله حق الحياء، والحياء من الناس عند فعل القبيح، وترك التفحش في القول والفعل .قال النبي ﷺ: "إِنَّ لِكُلِّ دِينٍ خُلُقًا، وَخُلُقُ الإِسْلاَمِ الْحَيَاءُ" (رواه مالك). فإذا كان الحياء خُلق الإسلام، فهو خلق التشبّه بالملائكة أيضًا.

ثالثًا: السرعة إلى الخير

الملائكة لا يتريثون في تنفيذ أوامر الله ولا يسألون "لماذا؟" ولا يفكرون بالتملص من المهمات الصعبة. قال تعالى: "بَلْ عِبَادٌ مكرمون، لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ" (الأنبياء: 26-27). و "لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ" (الأنبياء: 19).

الملائكة هم رسل الله وجنده وسفراؤه إلى الأنبياء والمرسلين .وتنفيذ الرسالة والجندية يحتاج إلى سرعة وبذل ومبادرة .إنهم يسارعون في الخيرات كما لو كانت طبيعتهم هي الخير بلا تردد.

في المقابل، تجد بني آدم يماطلون ويتسوّلون الأعذار: "سأفعل غدًا، لستُ مستعدًا الآن، هذه العبادة صعبة". الإنسان بحاجة ماسّة أن يتشبه بالملائكة في :المبادرة إلى الطاعات، رأيت الخير فبادرت، لا تؤجل عمل اليوم إلى الغد، ولا تنتظر الظروف المثالية لتبدأ الخير.

رابعًا: القوة مع الخشية

يجمع الله في وصف الملائكة صفتين قد تتعارضان في ظاهر النظرة: الشدة والقوة، مع الرحمة والخشية. كيف؟

- القوة :قال تعالى واصفًا ملائكة عذاب النار: "عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ" (التحريم: 6) .فالملائكة موكلون بأعمال تتطلب قوة جسدية وعنفًا في التنفيذ.
- الخشية :في المقابل، قال تعالى موصيًا إياهم: "يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ" (النحل: 50). فهم مع قوتهم، خائفون وجلون من جلال الله.

الجمع بين القوة والخشية هو أعلى درجات العبودية .فالضعيف الخائف فقط ليس مكتملًا، والقوي المتجبر ليس محمودًا. المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، لكن الشرط أن تكون قوته مقرونة بخشية الله.

يقول تعالى صفةً عن المؤمنين الذين هم أفضل البشر: "أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ" (الفتح: 29) .وهذا التشبيه بين صفات المؤمنين وصفات الملائكة ليس مصادفة، بل هو تطابق في الخلق.

ما التشبه بالإنسان؟ تكون قويًّا في الحق، شديدًا على الظالم والباغي، مع بقاء قلبك خاشعًا لله، رحيمًا بالضعفاء .ولا تخلط بين القوة في موضع الخشونة والقوة في موضع الرحمة؛ لكل مقام مقال.

خامسًا: العلم والعبادة

المَلَك الذي جاء إلى النبي ﷺ في هيئة رجل شديد بياض الثياب لم يُعرفه الصحابة جبريل عليه السلام إلا بعد أن علّمهم الإسلام والإيمان والإحسان .جبريل هو مُعلِّم البشر، الناقل للوحي الذي فيه العلم وبيان الحقائق.

الملائكة عالمون بالله وأسمائه وصفاته وأمره، وهم يُعلِّمون الأنبياء ما يوحى إليهم، والملائكة الموكلون بكتابة أعمال بني آدم (رقيب وعتيد) لهم علم بأعمال البشر.

وأما العبادة: الملائكة في عبادة دائمة لا تنقطع. قال تعالى: "يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ" (الأنبياء: 20) .قال الإمام الطبري: "يعني يسبحون الليل والنهار لا يفترون من تسبيحهم إياه."

وقال السمعاني: "قَوْلُه تعالى: يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ، يعني: يُسَبِّحون دائمًا، لا يضعفون ولا يفنون."

الملائكة يصلّون لله ويسجدون له بعلم وعمل، ولا يشغلهم عن ذكر الله شاغل: لا يأكلون ولا يشربون، ولا ينامون، ولا يملّون.

ما التشبه للإنسان؟ العلم الشرعي، وسؤال العلماء، وطلب الفهم الصحيح للإسلام، وطلب العلم النافع. والإكثار من العبادة والذكر، وبخاصة الصلاة والقرآن والتسبيح والتحميد. ليس المطلوب من الإنسان أن يبلغ دوام عبادة الملائكة، فهو بشر له حاجات، ولكن المطلوب أن يملأ وقته بطاعة الله ما استطاع، وأن يكون الذكر على لسانه دائمًا.

سادسًا: التنزه عن الكبر والحسد

لما أمر الله الملائكة بالسجود لآدم، سجدوا كلهم بينما إبليس كان من الجن فاستكبر .هذا السجود الجماعي دون تردد دليل على:

1. انتفاء الكبر عنهم :قال تعالى عنهم: "لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ" (الأنبياء: 19). والاستكبار هو الترفع عن العبودية، والملائكة ليس فيهم كبر أبدًا.
2. انتفاء الحسد عنهم :لم يحسدوا آدم على ما أعطاه الله من التكريم، بل سجدوا له امتثالًا لأمر الله. والحسد مرض نفساني يحرق صاحبه، وهو من أخلاق الشياطين وليس من أخلاق الملائكة.

الملائكة عباد مكرمون، لكن إكرامهم لا يخرجهم عن دائرة العبودية لله. وهم لا يدّعون الألوهية ولا يعبدون أنفسهم، ولا ينازعون الله في ملكه. وقد قال تعالى: "لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ" (النساء: 172).

ما التشبه للإنسان؟ تطهير القلب من الكبر والخيلاء وحب الظهور، وتطهيره من الحسد والغل على إخوانهم. والاعتراف بأنه عبد مملوك لله لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا. والتواضع لعباد الله وعدم الترفع عن الحق إذا جاء به أصغر الناس.

خاتمة الفصل – جدول تلخيصي لصفات الملائكة

الصفة	الدليل القرآني أو الحديثي	ما يستفيده الإنسان
الطاعة المطلقة	"لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ" (التحريم: 6)	الامتثال للأمر دون جدال، والخوف من الله
الحياء	"ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة"	الحياء من الله ومن الناس وترك الفحش
السرعة إلى الخير	"لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ"	المبادرة في الطاعات وعدم التسويف
القوة مع الخشية	"غِلَاظٌ شِدَادٌ ... يَخَافُونَ رَبَّهُمْ"	القوة في الحق مقرونة بالخوف من الله
العلم والعبادة	"يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ"	طلب العلم النافع، ودوام الذكر والعبادة
التنزه عن الكبر والحسد	"لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ"	التواضع للخلق، وتطهير القلب من الحسد

استثناء من الصفات: ما لا يمكن أن يتشبه به الإنسان

من الضروري التنبيه إلى أن بعض صفات الملائكة لا يمكن التشبه بها بأي حال من الأحوال، لا طاقيًا ولا شرعيًا:

من الضروري التنبيه إلى أن بعض صفات الملائكة لا يمكن التشبه بها بأي حال من الأحوال، لا وسعاً ولا شرعًا:

1. **العصمة المطلقة** :الملائكة لا يخطئون ولا يذنبون، وهذا لا ينطبق على أي إنسان مهما علا شأنه، فالأنبياء معصومون في التبليغ ولكنهم ليسوا معصومين من الخطأ في الاجتهادات أو السهو في العبادات. لذا، الإنسان الصالح ليس من المتوقع أن يبلغ درجة العصمة المطلقة.
2. **عدم الحاجة إلى الأكل والشرب والنوم والزواج** :هذه ضرورات إنسانية، ومحاولة التشبه بالملائكة في تركها هو تشبه محرم، بل هو من الغلو في الدين الذي نهى عنه الإسلام (كما في الرهبانية المبتدعة).
3. **القدرة على التشكل والطيران** :هذه خصائص خَلقية لا ربط لها بالأخلاق، ولا يمكن للإنسان أن يتشبه بها، بل محاولة ادعاء ذلك هو محض خيال أو كذب.
4. **عدم التكليف بالأحكام الشرعية** :الملائكة لا يكلّفون بالصوم والحج والزكاة، والإنسان مُكَلَّف بها، فليست هذه رتبة نقص، بل هي رتبة كمال للبشرية.

خلاصة الباب الثاني وتوصيات سلوكية

بعد هذا الاستعراض لخلق الملائكة وطبيعتهم وصفاتهم الأخلاقية، نستطيع أن نحدد التوأم الروحي للإنسان الصالح :الملائكة في طاعتهم، وحيائهم، ومسارعتهم إلى الخير، وقوتهم المتوازنة، وعلمهم وعبادتهم، وخلوهم من الكبر والحسد.

التوصيات العملية التي نخرج بها من هذا الباب:

1. يوميًا :اسأل نفسك قبل أن تنام: هل طاعتي اليوم كانت قريبة من طاعة الملائكة في العزم والامتثال؟ وإن كنت تعصي أحيانًا، فهل عجلتَ بالتوبة قبل أن تنام؟
2. عندما تغضب :تذكّر أن الملائكة عباد مكرمون لا يعصون الله، وزِنْ غضبك بميزان الشرع، وتجنّب أن يؤدي بك إلى التعدي أو الظلم.
3. عند وسوسة الكبر :تذكّر أن الملائكة سجدوا لآدم بلا استكبار. فكيف تترفع أنت على أخيك الإنسان مثلك؟
4. أسبوعيًا :اختر صفة من هذه الصفات الست، وركّز على تطبيقها بتدرج، ثم انتقل إلى الصفة التي تليها.

التأمل والتمرين

تمرين هذا الأسبوع :اختر صفة "السرعة إلى الخير"، والتزم هذا الأسبوع بألا تؤجل أي عمل صالح تراه أمامك. إذا رأيت مسكينًا، تصدّق عليه فورًا. إذا رأيت فرصة للصلاة في وقتها، صلِّ في أول الوقت. إذا سنحت لك فرصة لدعوة أو نصح، بادر بها ولا تؤجل.

سؤال للتأمل :ما أكثر الصفات الملائكية التي تغيب عن حياتك اليومية؟ الطاعة أم الحياء أم السرعة إلى الخير؟ اكتبها في مفكرتك لتكون نقطة بدايتك.

ثبت المصادر والمراجع لهذا الباب

1. القرآن الكريم.
2. البخاري، محمد بن إسماعيل. "الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه". طبعة دار طوق النجاة، بيروت. 1422هـ - 2001م.
3. مسلم بن الحجاج، "الجامع الصحيح". طبعة دار إحياء التراث العربي، بيروت. تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي.
4. ابن تيمية، أحمد بن عبدالحليم. "مجموع الفتاوى". تحقيق أنور الباز و عامر الجزار. دار الوفاء، المنصورة. الطبعة الثالثة. 1426هـ - 2005م.
5. "خصائِص وصِفات الملائكة". إسلام ويب. تاريخ 7 سبتمبر 2025.
الرابط: https://www.islamweb.net/ar/article/235531/خصائِص-وصِفات-الملائكة
6. "الملائكة في الإسلام". ويكيبيديا، الموسوعة الحرة.
7. "صفات الملائكة". موقع موضوع. تاريخ الوصول: 2026.
8. "أصل خلق الملائكة". موقع ابن باز.
الرابط: https://binbaz.org.sa/fatwas/6225/اصل-خلق-الملائكة
9. "في قوله تعالى عن الملائكة: (يسبحون له بالليل والنهار)". إسلام سؤال وجواب. تاريخ 5 أبريل 2023.
10. "تفسير يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ [الأنبياء: 20]". سورة قرآن.

الباب الثالث

الطائفة الثانية – الشياطين (صفات نارية)

مقدمة الباب

"أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم". بهذه الكلمات نبدأ كل صلاة، وكل قراءة قرآن، وكل عمل يرجى فيه القبول. لماذا؟ لأن الشيطان هو الخصم الأزلي للإنسان، العدو المتربص الذي لا ينام ولا يغفل، يجري من ابن آدم مجرى الدم.

في هذا الباب، ننزل من عالم النور والقداسة الذي تحدثنا عنه في الملائكة، إلى عالم النار والغواية والكبر والفساد. ليس لنرتعب فقط، بل لنفهم طبيعة هذا العدو، ثم نتعرف على "شياطين الإنس" الذين يمشون بيننا، وعلى علامات التشبه بهم التي ربما تختبئ في أخلاقنا وسلوكنا دون أن نشعر.

إن التعرف على الشيطان وصفاته هو أول الطريق إلى الخلاص منه. والغاية النهائية لهذا الباب ليست اليأس، بل الوعي. فالذي يعرف كيف يخدع خصمه، يستطيع أن يتحصن.

الفصل الأول

خلقهم وطبيعتهم (من نار، لهم إرادة لكن للشر)

أولاً: أصلهم الناري – الفرق بين الجن والشيطان

الشياطين هم متمردو الجن، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "الشياطين من الجن وهم متمردوهم وأشرارهم ."والجن مخلوقون من نار ما قبل خلق آدم، كما ثبت في الحديث الصحيح عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال" :خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَ الْجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ."

وأما إبليس فهو أبو الجن، وهو الذي استكبر عن السجود لآدم بعد أن كان مع الملائكة بالتقرب إلى الله، ولكنه ليس من جنسهم. يقول ابن حجر: "كان إبليس من الجن، وهم خُلقوا من نار، والملائكة خُلقوا من نور."

الشياطين أصناف: منهم شياطين الجن، وهم مردتهم ومتمردوهم، ومنهم شياطين الإنس، وهم متمردو الإنس وأشرارهم .

ويرد هنا قلب السؤال: إذا خلق الله الجن من نار، فلماذا جعلهم من المخلوقات المكلفة؟ ذلك لأنهم كالإنسان، وهبهم الله الحواس والتمييز، وأرشدهم إلى الخير وحذرهم من الشر.

ثانياً: حقيقة إبليس

إبليس ليس ملكًا طرد من رحمة الله كما قد يظن البعض. هو من الجن، اختار أن ينحرف عما خلق له بعد أن مثل أمام الملائكة بالتقرب إلى الله، مكتسبًا شرف العبادة طوال تلك الفترة حتى قال الله تعالى له: "اسجد لآدم". وكما يقول الدكتور الصلابي: "لقد اختار إبليس -وهو من الجن- أن ينحرف عما خُلق له إلى غير ما خُلق له، عاصياً أمر الله ومتكبراً على طلب السجود."

ثالثاً: هل لهم إرادة ولكن للشر؟

للجن والشياطين إرادة واختيار مثل البشر تمامًا. الله تعالى هداهم السبيل إما شاكرا وإما كفورا. لكن الشياطين اختاروا طريق الغي والعصيان والعداوة لآدم وذريته. وقد قال الله تعالى: "إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا."

وهم ليسوا مجرد طاقة خفية، بل لهم كيان حقيقي، ويتزاوجون كالإنسان، ولهم ذرية وأعمار، ويموتون.

الفصل الثاني

أبرز صفاتهم الأخلاقية

أولاً: الكبر والعنجهية (قصة إبليس مع آدم نموذجاً)

الكبر هو أول صفات الشيطان وأعظمها. قال ابن القيم رحمه الله: "أصول الخطايا كلها ثلاثة: الكبر وهو الذي صير إبليس إلى ما صار، والحرص وهو الذي أخرج آدم من الجنة، والحسد وهو الذي جرأ."...

قصة إبليس نموذجًا: آيات الاستكبار

لما أمر الله الملائكة بالسجود لآدم، سجدوا كلهم أجمعون إلا إبليس. قال تعالى" :قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖقَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ) "ص: 75-76.(

الشيطان هنا أقام حجته الباطلة على عكس النص الصريح. لم يقل: "لا أمرتني" أو "أنا لا أستطيع" أو "أنا لا أريد"، بل قال: "خلقتني من نار وخلقته من طين". وهذه هي أول بدعة في الوجود، جعل الخالق يخالف أمره بحجة طبيعة المخلوق؛ وهذا أول قياس فاسد في التاريخ.

أصل الكبر عند إبليس

أصل كبره أنه رأى نفسه فوق غيره بسبب طبيعة خلقه (نار) وليس بسبب الخير في نفسه. هذه المفارقة العجيبة: هو المخلوق من النار -وهي طبيعة غير مطهرة- قال عن نفسه "أنا خير منه". يتعالى ويتكبر على من خلقه بيده ونفخ فيه من روحه.

الشيطان أخبر الله عنه أنه لما أمر بالسجود مع الملائكة أبى واستكبر وكان من الكافرين , وبين أن عنصره خبيث العنصر النار بها استكبر وبها رفع رأسه.

ما هو الكبر الذي صار مخرجًا للشيطان من الجنة؟

إن الكبر ليس التكبر فحسب، بل هو مبدأ. الكِبر هو بذر الشر الأول. والشخص المتكبر يتجاهل الحق الذي يأتيه من أي مصدر، ويرد الحق بحجة أنه "أفضل" بمعيار وهمي (النسب، الغنى، الجمال، العلم، المنصب...). وهذا هو عين التعاسة. وإبليس مع أنه كان أعبد أهل زمانه في البداية إلا أن الكبر أخرجه من رحمة الله.

وقال ابن باز رحمه الله: "كما أن الشيطان أخبر الله عنه أنه لما أمر بالسجود مع الملائكة أبى واستكبر وكان من الكافرين."

أضرار الكبر في الإنسان المعاصر

الكبر داء مميت يجعل الإنسان يرفض الحق، ويعمى عن الهدى، ويضيع مصلحته. من أصيب بالكبر: يرد الحق مهما كان واضحًا، وتأخذه العزة بالإثم، فيعمى عن الهدى، ويضيع مصلحة نفسه.

ما يستفيده الإنسان من هذه الصفة :هو درء التشبه الصريح بالشيطان. التواضع والانكسار والاعتراف بالفضل والتواضع لآدم وأن الإنسانية هي أنت وأنا، وأن قيمة الإنسان في تقواه وليس في أصله وجنسه.

ثانيًا: الحسد

الحسد هو المرض النفسي التالي مباشرة وراء الكبر. إبليس لم يكتفِ بالتكبر على آدم، بل أصبح يحسده ويتمنى زوال نعمته.

إبليس حسد آدم

الحسد وترتب على قنوطه هذا أنه قرر ألا يدخل الجحيم وحده وأقسم ليزينن لذريته المعاصي .من هنا بدأت عداوة الشيطان للإنسان؛ لم يكن يكرهه، فقط عندما رأى ما أعطاه الله، حسده وحقد عليه.

وقد وصف الله حسد اليهود للإنسان في القرآن، وهو حسد إبليس لهم على الميزة التي أعطها الله لهم.

الحسد مرض يحرق الحاسد قبل غيره

والحسد من أكبر كبائر القلوب، وهو الذي يستهوي النفوس الضعيفة إلى رذيلة الحسد وأذي الجار. الحاسد لا يضر المحسود إلا بقدر تقدير الله وقضائه، ولكنه يحرق نفسه ويمتلئ قلبه بالكراهية والحقد. ولذلك قال بعض السلف: "وهل رأيت ظالمًا أشبه بمظلوم من الحاسد؟! دائم الحزن والأسى، وفقد الصحة والعافية".

وقال سهل التستري: "الحسد أول ذنب عصي الله به". هو بداية الشر كله.

ما يستفيده الإنسان :علاج الحسد ليس مطلوبًا، بل إن الحسد ولعله يظل خوفًا من رحمة الله أن يحب نعمة الغير؟ نعم؛ لكن الواجب هو نزع الحسد من القلب، وأن نرضى بقضاء الله، وأن نتجنب أن نحسد الأخ نعمة أنعم الله بها عليه. الحسد – ضمن الأمراض القلبية التي توقع صاحبها في الشرور.

ثالثًا: الوسوسة والتزيين

الوسوسة هي أخطر سلاح يمتلكه الشيطان في مواجهة بني آدم. حتى أنه قيل: "سلاح إبليس الذي يحارب به ابن آدم هو الوسوسة والتزيين لا غير."

حقيقة الوسوسة

الوسوسة هي الصوت الخفي الذي يدعو إلى الشر أو يثير الشكوك في نفس الإنسان. قال تعالى" :مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ "(الناس: 4). "الوسواس" من شدة وسوسته يوسوس، و"الخناس" لأنه يخنس ويتأخر إذا ذكر الإنسان ربه.

الوسوسة تدل على صوت غير رفيع: يقال: لصوت الحلي وسواس، وهمس الصائد وسواس، وإغواء الشيطان ابن آدم وسواس.

الوسوسة تكون من أهل الشر من الجن، ومن بني آدم. الشيطان بين كر وفر حول أسوار قلوب أهل الإيمان، يوسوس لهم، فإذا ذكر المذكور الله من قلبه فر الشيطان، فإذا غفل عاد.

تزيين المعاصي

أما التزيين: فهو أن يجعل الشيطان القبيح جميلًا في عين الإنسان. قال تعالى" :وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ " النمل: 24 .

الشيطان لا يطلب من الإنسان أن يعصي الله مباشرة، بل يقنعه أولاً أن المعصية ليست معصية، أو أنها صغيرة لا بأس بها، أو أن هناك من هو أسوأ منه. وهذه هي عملية "التزيين" التي تجعل القلب يرضى بما يغضب الله.

الفرق بين الوسوسة والتزيين

الوسوسة دعوة إلى الشك، والتزيين دعوة إلى الرضى بالمعصية. الاثنان معًا يجعلان الإنسان يتخبط في الظلمات. قال بعض السلف: "إن الشيطان ليقعد لابن آدم في طريق الطاعات فيقول له: أتريد أن تعصي الله؟ يقول: لا. فيقول له: أتريد أن تظل محافظًا على الصلاة في وقتها؟ يمنيه ويخدعه، حتى يتساهل في الصلاة شيئًا فشيئًا... إلخ".

ما يستفيده الإنسان :معرفة هذه الأداة الخفية تمكن الإنسان من مقاومتها بالذكر وطلب العون بالله. التعوذ بالله من الشيطان الرجيم في بداية كل عمل.

رابعًا: المكر والخداع

الشيطان هو أستاذ المكر والخداع في الوجود. قال الله تعالى في وصفه" :إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ) "فاطر: 6.(

آيات في مكر الشيطان

قال تعالى" :يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا "(النساء: 120). هذا إخبار عن الواقع؛ لأن الشيطان يعد أولياءه ويمنيهم بأنهم هم الفائزون في الدنيا والآخرة، وقد كذب.

يعدهم أباطيله وترهاته من المال والجاه والرياسة، وأن لا بعث ولا عقاب، ويوهمهم الفقر حتى لا ينفقوا في الخير.

مكر الشيطان عبر العصور

قصة الشيطان مع الإنسان لم تتوقف على العصر الأول. تنوعت حيل الشيطان مع كل تقدم تكنولوجي وسياسي واجتماعي. المكر نوعان:

1. مكر بالوعود :يعد الإنسان بالثروة والجاه والسلطة والمتعة المحرمة.
2. مكر بالخوف :يوهم الإنسان بالخوف من الفقر أو الخوف من العواقب (التي لا وجود لها في الحقيقة).

وخير مثال على مكر الشيطان أن النبي محمدًا ﷺ كان يصلي في الكعبة، ويسجد في أذى كفار قريش، حتى إذا سجد جاء عقبة بن أبي معيط وطرح عليه سلا الجزور، فجاءت فاطمة وألقته عنه. هذه كانت قوة إبليس الذليلة في ماضينا.

وأيضًا: يوم الخندق حين أحاطت الأحزاب، وأيقن المسلمون أنهم لا يخلصون، إذ قال المنافقون: "ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورًا". هنا أيضًا مكر الشيطان.

ما يستفيده الإنسان :الثقة بوعد الله الصادق والواقعي، وتقديم التوكل على الخوف من وعود الشيطان الفارغة. كما قال تعالى: "فَإِنَّمَا يَخَافُنِي."

خامسًا: اليأس والقنوط

الملائكة هم أصحاب الرجاء والأمل في رحمة الله. أما الشياطين فهم أصحاب اليأس والقنوط.

الشيطان يقنط الناس من رحمة الله

قال تعالى" :إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ "(يوسف: 87). واعلم أن الشياطين يقنطون الناس من رحمة الله تعالى حتى يزهدوا في التوبة ولا يسارعوا إليها.

كيف يقنط الشيطان الإنسان؟

القنوط من وسوسة الشيطان: قال الإمام الغزالي رحمه الله: "العاصي المنهمك إذا خطرت له التوبة، قال له الشيطان: وأنَّى تُقبَل توبتك، فيقنط من رحمة الله."

سبب يأس إبليس

إبليس قنط من رحمة الله عندما طرده؛ ولكنه لم يقف عند اليأس، بل عمل على مد كل من حوله إلى اليأس. كما قال في الآية: "لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ."

ما يستفيده الإنسان :التائب لا يفكر في ذنبه باليأس، بل يطهر نفسه ويمضي قدمًا. اليأس هو أبواب الفشل؛ الإيمان بالله وبجبروته ورحمته يمنح الإنسان أملًا لا ينقطع.

سادسًا: التسويف

ربما أكثر الأشياء التي يخسر بها الإنسان هي "التسويف". قالوا: التسويف هو أم المعاصي وأكبر كبائر الأعمال الصالحة الفائتة.

التسويف من جنود الشيطان

والتسويف كما قال أهل الله من جنود الشيطان.

يقع الشيطان بالإنسان في طريق التوبة والتغيير" :سوف أتوب غدًا، سأصلي حين أكبر، سأتصدق حالما يتيسر الحال"...، وهكذا. قال الإمام ابن عطاء الله السكندري في حكمه: "إحالتك الأعمال على وجود الفراغ من رعونات النفس."

خطورة التسويف

التسويف في التوبة: هو الوهم القاتل الذي يُخدِّر الضمير، ويُغري الإنسان ببحر الأماني حتى يغرق فيه.

أشهر صور التسويف

- تأجيل التوبة :يمنيه الشيطان بكثرة العمر، فيؤخر التوبة لحين الموت، وينتهي به إلى سيئ الخاتمة.
- تأجيل العبادات :كقول المسلم: "سأصلي بعد قليل، سأصوم في صغري، سأحج غدًا."
- تأجيل التغيير في السلوك :يحدث نفسه بالتخلص من العادات السيئة لكنه لا يبادر.

علاج التسويف في أن يأخذ النفس بالحزم وقوة العزيمة، ولأن تتعب النفس اليوم لتستريح غدًا، خير لها.

ما يستفيده الإنسان :المبادرة فعل الخير فورًا، والتوبة النصوح بلا تأخير، فإن العمر لا يطول والأمل أبعد الأسباب في الغرور.

استراتيجيات للتعامل مع صفات الشيطان:

1. الأمر الأول :نلاحظ أن هذه الصفات مرتبة -من العناوين كالكبر حتى التسويف- متسلسلة. الكبر يفصل الإنسان عن ربه، والحسد يقطعه عن الناس، والوسوسة والتزيين يضلانه، والمكر يصم الآذان عن الخير، واليأس يمنع التوبة، والتسويف يبعد أمد الأجل.
2. العلاج :التعوذ بالله منه، والصلاة والذكر، وتذكير النفس أن لا يقع ضحية خداع الشيطان. وأيضًا: تذكر قول الله سبحانه: "إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا."

الفصل الثالث

كيف يصبح الإنسان "شيطانًا"؟ (شياطين الإنس والجن)

أولاً: شياطين الجن والشياطين من الإنس

تقدم لنا من تعريف الحقيقة :الشياطين نوعان:

1. شياطين الجن :وهم متمردو الجن وأشرارهم. هم الذين أوحوا إلى أوليائهم من الإنس ليجادلوا المؤمنين. قال تعالى" :وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ "(الأنعام: 121). الشياطين من فارس وأوليائهم من قريش.
2. شياطين الإنس :وهم متمردو الإنس وأشرارهم، من الكفرة والفسقة.

ثانيًا: حقيقة شياطين الإنس

شياطين الإنس هم الذين يصيروا على منهج الشيطان في الكبر والحسد والمكر والخداع والغواية . وبعض العلماء ذكر أنهم يتبعون خطوات إبليس وذريته من الجن في المعاصي والفتن.

ويقولون إن شياطين الإنس أخطر من شياطين الجن، ليس لأن الجن ضعيف، بل لأن شياطين الإنس يرون ويلمسون ويؤثرون تأثيرًا مباشرًا يأتي بالعيان والتجسيد.

قال ابن القيم رحمه الله: "ولما كان الشيطان على نوعين: نوع يرى عيانًا، وهو شيطان الإنس، ونوع لا يرى."...

ثالثًا: صفات شياطين الإنس

من أبرز صفات شياطين الإنس التي ذكرها العلم أو ناشدها السلف:

- يحارب نجاح غيره (ويحسد)
- لا يراعي كرامة الناس (يتعدى على حقوقهم وحرماتهم)
- ينتقد كل شيء حوله "لا يعجبه أحد" (النقد اللاذع المستمر)
- يستسهل حقوق الناس ويسعى للإضرار بهم والكيد لهم
- يتكبر ويعجب بنفسه (لا يقبل النصيحة، يرفض الحق)
- يعمل على تفريق الناس بالوقيعة والنميمة والتحريض
- يُظهر الكراهية والبغضاء للمؤمنين والمصلحين
- يُشجع على الفواحش والمعاصي وينشر الفساد

رابعًا: لماذا شياطين الإنس أخطر من شياطين الجن؟

لأن شيطان الإنس يقترب منك بصورة بشر مثلك، يتحدث لغتك، يفهم نفسيتك، يعيش في مجتمعك. وأنت تشعر بالأمان منه بداية، ثم تهتدي به إلى الطريق الرديء.

قال ابن باز رحمه الله: "وله مداخل كثيرة على الأفراد والجماعات والذكور والإناث والملوك والأمراء والعلماء وغيرهم، له دخول على كل أحد هو وذريته وأتباعه من شياطين الإنس أيضًا."

والله تعالى حذرنا منهم جميعًا، في قوله تعالى: "وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا" (الأنعام: 112).

خامسًا: التحذير من اتخاذ شياطين الإنس أولياء

قال تعالى" :أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ۚ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا "(الكهف: 50). ذرية إبليس هم الشياطين. والإنسان حين يتخذ شيطانًا من الإنس صديقًا أو قائدًا أو قدوة، لا يلبث أن يضله عن سبيل ربه.

الفصل الرابع

علامات التشبه بالشيطان في السلوك اليومي

أولاً: لماذا ننهى عن التشبه بالشيطان؟

قال العلماء: التشبه بالشيطان مع ما فيه من المبالغة في القبح يتضمن التشبيه بأشد الكفار كفرًا وخداعًا وكذبًا وعداوة وظلمًا.

والواجب على المؤمن أن يحذر التشبه بالشياطين؛ لأن التشبه في الظاهر قد يجرّ إلى التشبه في الباطن، وقد يُفضي إلى العذاب والمقت.

ثانيًا: علامات التشبه السلوكية (ما يُفهم من النصوص)

هذه لمحة من علامات تشبه الإنسان بالشيطان، في الصفات والأخلاق والعادات:

.1الكبر والاستكبار من غير حق

- التعالي على الآخرين :إذا نظرت إلى الناس من علٍ، احتقرتهم، رددت عليهم الحق بحجة أن "أنا أفضل منك."

- عدم قبول النصيحة :الاستكبار من آفات النفس، وهو أكبر معول يهدم به الشيطان الإيمان.
- التكبر بالحسب والنسب والغنى والجمال أو القوة أو المعرفة، يذكرك بالعلة الباطلة التي قالها إبليس.

.2الحسد والحقد على الآخرين

- التمني بزوال النعمة عن الآخرين.
- الشماتة بزوال النعمة" :الحمد لله الذي أذله وأهانه."
- الإفساد بين الناس بالوقيعة والنميمة، لتفرق بين المتحابين.

.3الخداع والكذب وإخفاء النوايا السيئة

- الغش في المعاملات يروّج لك خير ما عندك والبيع بأعلى سعر؛ هذا من تزيين الشيطان.
- النفاق :أن تظهر بمظهر الملائكة وأنت في باطنك شيطان.

.4إضلال الآخرين والدعوة إلى الشر

- أمر الناس بالفحشاء والمنكر :أي إنسان يأمر بمعصية فهو يمارس طبائع الشياطين.
- تزيين المعاصي في أعين الآخرين" :روّقها" وسوّلها لهم.

.5اليأس والقنوط من رحمة الله

- الاستسلام لليأس بعد الذنب أو المحنة، مع أن رحمة الله مفتوحة.
- أنف عن التوبة :هذا من الشيطان الذي قال: "لن أتوب، لن يغفر الله لي."

.6التسويف والتأجيل

- طول الأمل وتأجيل التوبة والعبادات، هذه من صفات الشيطان، الذي قال: "سأقيم الصلاة بعد قليل... سأصلح مالي... سأترك المعصية."...

.7إيذاء الناس بالأذى المادي والمعنوي

- الإفساد في الأرض بالفساد المالي والاجتماعي، قال تعالى: "إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ."
- إظهار العداوة والبغضاء بين الناس :صب الزيت على نار الفتن.

8.الحديث عن الذنوب وكشف المعاصي

- المجاهرة بالذنب والحديث به وهذا من الكبائر، لأن الله يمحو أثر ذنوب أهل التوبة ولكن المجاهر يصر على الصغيرة ثم يكبرها بالحديث عنها.

9.العادات والتقاليد الصورية (اقتداءً بالشيطان في حركاته)

- الأكل بالشمال والشرب بها :فإن هذا من عمل الشيطان.
- ترك المأكولات والمشروبات التي أباحها الله؛ نوع من أنواع التشبه بالشيطان .
- التبختر والاختيال في المشي واللباس، وهذا تكبر.

10.السعي في نشر الفاحشة والرذيلة

- الاستسهال والدعوة إلى السلوك المنحرف.

ثالثًا: علامات أشد خطورة

ذكر ابن قدامة وغيره: أشد علامات التشبه بالشيطان في عصرنا هي:

- الانغماس في الشهوات المحرمة بدون وازع.
- اتخاذ الأعداء أولياء وأصدقاء، وموالاة أعداء الله.
- ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر –فإن جند الشيطان لا يأمرون بمعروف ولا ينهون عن منكر.

خلاصة الباب الثالث وتوصيات سلوكية

بعد استعراضنا لطبيعة الشياطين وصفاتهم وطرقهم وكيف يمكن أن يصير الإنسان شيطانًا وعلامات التشبه بهم، نخرج بالتوصيات التالية:

- عرف عدوك :أن تعلم أن الشيطان عدو مبين للإنسان، وأن عداوته قائمة على الكبر والحسد والوسوسة والمكر والتسويف.
- تحصن بالله :قال تعالى" :وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ۚ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ."
- الذكر حصن منيع :أذكار الصباح والمساء، التعوذ بالله من الشيطان الرجيم قبل القراءة والأكل والدخول إلى الخلاء.

- تواضع تكبر :إذا أحسستَ بكبر في نفسك، تذكر أنك من تراب وإليه تعود، تذكر مصير فرعون وقارون.
- لا تخرج التوبة من قلبك :فهي التي ترد اليأس والقنوط، وتقطع التسويف، وتزيل أثر الوسوسة.
- لا تكن شيطانًا من شياطين الإنس :تجنب صفاتهم التسعة، ولا تدع التكبر والبطر والعجب يفقدك أخلاقك وإنسانيتك.
- اختر جليسك :من يجلس مع شيطان من الإنس (مدمن شراب، مدخن خبيث، ناشئ فاسق، متكبر، حاسد...) يوشك أن يتشبه به.

التمرين والتأمل لهذا الباب

1. تمرين أسبوعي :كل ليلة قبل النوم، اسأل نفسك: من أي صفات الشيطان كنت ضحية اليوم؟
   - هل تكبرت على أحد؟ تصدقت بصدقة عن نفسك عن هذا الذنب.
   - هل حسدت أحدًا؟ استغفر له ودعا له بالبركة والزيادة من فضل الله.
   - هل وسوست في نفسك أو زينت لك ما هو حرام؟ استعذ بالله وكبر في ذكر الله.
2. سجل يومياتك :دوّن أي علامة من علامات التشبه بالشيطان رأيتها في تصرفك اليوم أو في تصرف من حولك (ولاية خاصة بدون تجريح).
3. التوبة من الذنوب التي جلبها الشيطان إليك :يمكنك أن تبدأ من اليوم بتجديد التوبة والاستقامة.

ثبت المصادر والمراجع لهذا الباب

1. القرآن الكريم .
2. البخاري، محمد بن إسماعيل. "الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه". طبعة دار طوق النجاة، بيروت. 1422هـ - 2001م.
3. "الشيطان خلق من نار". إسلام ويب https://www.islamweb.net/ .

4. ابن باز، عبدالعزيز بن عبد الله. "الفرق بين الشياطين والجن وإعانة الجن للإنس https://binbaz.org.sa/ ".
5. "تحذير المسلمين من التشبه بالشياطين". طريق الإسلام. 2017.
6. "خطايا إبليس (الكبر، والقنوط، والحسد)". إسلام ويب. 2014.
7. "يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا". إسلام ويب.
8. "التسويف في التوبة من كيد الشيطان ومكره". إسلام ويب. 2011.
9. الشيخ صالح الفوزان: "شياطين الإنس أخطر من شياطين الجن."
10. ابن القيم الجوزية: "مدارج السالكين."

الباب الرابع

الطائفة الثالثة – البهائم والحيوانات والحشرات (صفات غريزية)

مقدمة الباب

"وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ" (الأنعام: 38).

هذه الآية التي بدأنا بها الكتاب تعود بنا الآن إلى مشهد جديد. بعد أن تأملنا صفات الملائكة النورانية، وتبصّرنا مكائد الشياطين النارية، نقف اليوم أمام مرآة المخلوقات التي تشترك مع الإنسان في الأرض والطعام والغريزة: عالم البهائم والحيوانات والحشرات.

قد يستثقل البعض هذه المقارنة، ظنًّا منها أنها انتقاص من كرامة الإنسان. لكن الحقيقة أن القرآن سبقنا إلى هذا التشبيه، بل جعله أداة للوعظ والتذكير. قال تعالى" :وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ) "الأعراف: 179.)

إنها آية تزلزل القلب. تخبرنا أن الإنسان قد ينحدر إلى درجة أسوأ من البهيمة حين يُعطّل عقله عن التفكر، وقلبه عن الفقه، وأذنه عن السماع النافع. فالبهيمة تسمع صوت راعيها فتتبعه، وتبصر

مصلحتها فتقصدها، وتهرب من العدو فتحتمي. أما هذا الإنسان فقد أعطي كل هذه الحواس ثم عطّلها عن غرضها الأسمى: معرفة الله وعبادته.

يقول الإمام ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية: "فإن الأنعام تعقل ما خلقت له، وهؤلاء خلقوا لعبادة الله وحده لا شريك له، وهم يعبدون غيره ويشركون به، مع قيام الحجة عليهم، وإرسال الرسل إليهم ."وهذا هو سر كونهم "أضلّ" من الأنعام: أنهم يملكون عقلاً وإرادة ثم يُسخّرانهما في غير ما خُلقا له.

في هذا الباب، سنجول في مخلوقات الله الأرضية: الأسد الذي يرمز إلى القوة والجسارة، والذئب الذي يرمز إلى العدوان والشراهة، والكلب الذي يرمز إلى الحرص والثرثرة، والثعلب الذي يرمز إلى المكر والدهاء، والخنزير الذي يرمز إلى اختيار القذارة، والصرصار الذي يرمز إلى حب الظلمة ورفض النور. ثم نتوقف عند آيتين عظيمتين: "والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام"، وآية "أولئك كالأنعام بل هم أضل". في النهاية، نستخلص توصيات سلوكية نعيش بها، ونتوب بها، ونزكّي بها أنفسنا.

الفصل الأول

تنوع طبائع البهائم (الأسد، الذئب، الكلب، الثعلب، الخنزير، الصرصار)

أولاً: قول سفيان بن عيينة - أساس المفهوم

لقد استنبط الإمام سفيان بن عيينة (توفي 198هـ) من الآية 38 من سورة الأنعام حكمة بديعة، لخّص فيها تنوع الطبائع البشرية" :ما في الأرض آدمي إلا وفيه شَبَهٌ من البهائم: فمنهم من يَهتْصِرُ اهتِصَارَ الأسَد، ومنهم من يَعْدُو عَدْوَ الذِّئب، ومنهم من يَنْبَحُ نُبَاحَ الكَلْب، ومنهم من يَتَطَوَّسُ كفعل الطاووس، ومنهم من يُشبه الخنازير التي لو أُلقي إليها الطعام الطيب عافته، فإذا قام الرجل عن رَجِيعِه وَلَغَتْ فيه."

يقول الخطابي معلقاً على هذا الاستنباط: "ما أحسن ما تأول سفيان هذه الآية واستنبط منها هذه الحكمة! وذلك أن الكلام إذا لم يكن حكمه مطاوعاً لظاهره وجب المصير إلى باطنه، وقد أخبر الله عن وجود المماثلة بين الإنسان وبين كل طائر ودابة، وذلك ممتنع من جهة الخلقة والصورة، وعدم من جهة النطق والمعرفة؛ فوجب أن يكون منصرفاً إلى المماثلة في الطباع والأخلاق."

ثانياً: تفصيل طبائع البهائم في الإنسان

.1الأسد – الجسارة والصولة

الأسد ملك الغابة، رمز القوة والشجاعة والقدرة على القيادة.

- التشبه المحمود :الجرأة في الحق، الشجاعة في مواجهة الباطل، القوة على العدو، عدم الخوف من لومة لائم.
- التشبه المذموم :الاعتداء على الضعفاء، البغي والظلم، الغضب المفرط في غير محله، التسلط على الناس بلا حق.

قال النبي ﷺ" :المُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ] "صحيح مسلم، كتاب القدر، ح 2664 - طبعة دار إحياء التراث العربي، ج4، ص 205 .[المقصود بالقوة هنا: قوة الإيمان والعزيمة والإرادة، لا القوة الباغية.

.2الذئب – الخبث والعدوان

الذئب حيوان مفترس، لا يشبع، يهاجم الفريسة بدهاء وشراهة.

- التشبه المذموم :الالتهام والشراهة في المال والسلطة، التعدي على حقوق الآخرين، النفاق والغدر، الأكل بشراهة كما تأكل الأنعام.

قال الله تعالى في وصف الكافرين" :وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ) "محمد: 12 .(وقال ابن عباس في تفسيرها: "ليس لهم هَمٌّ إلا بطونهم وفروجهم."

.3الكلب – الحرص والولاء المشوه

الكلب حيوان شديد الحرص، ينبح كثيراً، يلهث في كل حال.

- التشبه المحمود :الوفاء لمن أحسن إليه، حراسة المال والأهل.
- التشبه المذموم :كثرة الكلام والثرثرة دون فائدة، الحرص الشديد على الدنيا، السعي خلف الرياسة والجاه، النفاق وتعدد الوجوه.

قال الله تعالى في مثل الذي آتاه آياته فانسلخ منها" :فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث "[الأعراف: 176]. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "التشبه بالبهائم في الأمور المذمومة مذموم منهي عنه: في أصواتها وأفعالها؛ ونحو ذلك مثل: أن ينبح نُبَاحَ الكلاب."

.4الثعلب – المكر والدهاء

الثعلب أيقونة المكر والخداع في الثقافة العربية.

- التشبه المذموم :التحايل على الناس بالكذب والنفاق وتعدد الوجوه، التظاهر بالود وإبطان الشر، إيقاع الناس في الشرك والفتن.

- التشبه المذموم :التملق للناس طمعاً في منفعة، القيادة الخفية للفتن.

.5الخنزير – قذارة الطباع واقتناص العثرات

قال سفيان بن عيينة عن الخنزير: "التي لو ألقي لها الطعام الطيب عافته، فإذا قام الرجل عن رجيعه ولغت فيه."

- التشبه المذموم :اقتناص العثرات، حفظ الزلات، النقد اللاذع مع إعراض عن الحسنات، تفضيل السفاسف على الجواد.
- قال سفيان: "فكذلك نجد من الآدميين من لو سمع خمسين حكمة لم يحفظ واحدة منها، فإن أخطأت مرَّة واحدة حفظها، واستحسنه الخطابي، وقال: فإنك إنما تعاشر البهائم والسباع، فبالغ في الحذار والاحتراز."

.6الصرصار – حب الظلمة والقذارة

الصرصار حشرة تأنس بالظلام والبلاعات والمجاري، تتجنب النور والنقاء.

- التشبه المذموم :اختيار المعاصي والذنوب والإصرار عليها، تفضيل الظلمة على النور، التلذذ بالوقوع في الأوحال الأخلاقية، العيش في "بلاعة" الذنوب رغم كل النصائح والتحذيرات.

لعل هذا النوع الأخير هو ما صوره دوستويفسكي في "الإنسان الصرصار"، ليصل بالإنسان إلى ذروة الانحطاط، حيث يختار القذارة وهو يعلم أنها قذارة.

ثالثاً: تنبيه منهجي

هذه الصفات لا تعني أن من اتصف بها قد خرج من دائرة الإنسانية، أو أنه صار حيواناً حقيقة. بل المراد: التشبه في الصفات والأخلاق، لا التطابق في الجوهر. فالإنسان يظل مكلَّفاً مكرَّماً، لكنه معرض للانزلاق إلى هذه الصفات إن هو أهمل تزكية نفسه.

الفصل الثاني

صفات يمكن أن تكون محمودة إذا ضبطت (كالقوة، الحذر، البر)

ليس كل تشبه بالحيوان مذموماً بذاته. فالشرع الحنيف يقرّ بأن هناك صفات حيوانية تكون محمودة إذا سُلِّطت في موضعها الصحيح، وبالقدر المناسب. قال النبي ﷺ" :الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ

وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ ."والقوة هنا هي قوة الإيمان والعزيمة والجسد، في حدود الشرع.

أولاً: القوة كالأسد – محمودة في موضع الجهاد والدفاع

من تمام الإيمان أن يكون المؤمن قوياً في الحق، شديداً على الظالم، مدافعاً عن المظلوم. القوة المحمودة: أن تكون قوياً على عدوك، رحيمًا بمن تحت يدك، خاشعًا لله. أما القوة المذمومة: فهي الاعتداء على الضعفاء ظلماً وبغياً.

وقال تعالى" :وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ "(الأنفال: 60). والقوة هنا تشمل القوة البدنية والمادية والمعنوية.

ثانياً: الحذر كالثعلب – محمود في حدود التوكل على الله

قال تعالى" :يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ "(النساء: 71). الحذر من المكائد والأعداء واجب شرعي. لكن الفرق بين الحذر المحمود والجبان: الحذر يكون مع التوكل على الله، وأخذ الأسباب المشروعة، دون إخلال بالفرائض والثقة بالله. أما الجبن فهو ترك الواجبات خوفاً من الناس.

ثالثاً: البر والوفاء كالكلب – محمود بالإخلاص لله

الكلب يوفي لمن يطعمه ويحسن إليه. هذه الصفة محمودة في الإنسان إذا كانت بإخلاص النية لله، ورعاية حقوق الناس، والوفاء بالعهود. وقد أثنى الله على خير خلقه بقوله" :وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ ۖ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا "(الإسراء: 34).

رابعاً: التعايش الاجتماعي كالنحل – ليس كل تشبه حيواني مذموماً

قال تعالى" :وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ "[النحل: 68]. قال ابن القيم: "في النحل كرامٌ عمال، لها سعي وهمة واجتهاد ."فهذا الاجتهاد والانضباط والتعاون المحمود صفات يستفيد منها الإنسان.

خامساً: الضوابط الثلاثة

1. الإطار الشرعي :لا تتخذ صفة إلا في حدود ما أحله الله.
2. الغاية النبيلة :أن تكون الصفة لخدمة الحق ورفع الظلم، لا للبغي والعدوان.
3. الاعتدال والميزان :كل صفة مفرطة في أحد طرفيها تصير مذمومة؛ فالقوة المفرطة تتحول إلى بطش، والحذر المفرط يتحول إلى جبن.

الفصل الثالث

الصفات المذمومة التي تظهر في الإنسان

بعد أن عرفنا الصفات الحيوانية التي يمكن أن تكون محمودة إذا ضبطت، ننتقل إلى الطرف الآخر: الصفات البهيمية التي أطلق عليها الشرع لفظ الذم صراحة، وجعلها من علامات الانحطاط والغفلة.

أولاً: الشبع المفرط واللهو (كالأنعام)

قال الله تعالى" :وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ) "محمد: 12.(

تحليل الآية

- "يَتَمَتَّعُونَ :"متعة دنيوية عابرة، ليس بعدها من فكر في الآخرة.
- "وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ :"أكل الأنعام: خضمًا، قضمًا، بلهفة وسرعة، دون تفكر في الحلال والحرام، ودون شكر للمنعم.
- قال ابن كثير رحمه الله: "أي في دنياهم يتمتعون بها ويأكلون منها كأكل الأنعام، خضماً وقضماً وليس لهم هَمَّة إلا في ذلك."
- قال الزجاج: "أي ليس لهم هَمٌّ إلا بطونهم وفروجهم."

صفات التشبه بالأنعام

- أكل وشرب بلا حد :الشراهة في الطعام والشراب دون إشباع روحي أو تفكر.
- نوم بلا قيام :النوم الكثير طلباً للراحة دون قيام لله أو تفكر في الليل.
- سعي دائم للترفيه واللهو :الانغماس في وسائل التسلية دون هدف أسمى.
- غياب التفكير في العواقب الأخروية :العيش كأن الحياة الدنيا هي كل شيء.
- انغلاق آذان القلب عن سماع الحق :مثل الأنعام التي تسمع الصوت دون أن تفقه معناه.

الحديث المؤكد

قال النبي ﷺ" :الْمُؤْمِنُ يَأْكُلُ فِي مِعًى وَاحِدٍ، وَالْكَافِرُ يَأْكُلُ فِي سَبْعَةِ أَمْعَاءٍ "[صحيح البخاري، كتاب الأطعمة، باب المؤمن يأكل في معي واحد، ح 5393 - طبعة دار طوق النجاة، ج6، ص 212].
وهذا إشارة إلى شراهة الكافر وشدة حرصه، بينما المؤمن يعرف القصد والاعتدال.

ثانياً: العدوان بلا سبب (كالسبع)

السبع يهاجم فريسته لا ظلماً بقدر ما هي غريزته في البقاء. أما الإنسان فيملك العقل والإرادة، ولهذا كان عدوانه أشد إثماً وأكبر وزناً.

صفات التشبه بالسبع

- العدوان على الآخرين بغير حق :التعدي على أموالهم وأعراضهم وأنفسهم.
- البغي والظلم :طلب العلو في الأرض بغير حق.
- القسوة غير المبررة :التمتع بإيذاء الغير.
- الغضب الذي لا يُقهر :أي الغضب الذي يخرج الإنسان عن طوره فيصبح كالسبع الضاري.

أدلة شرعية

قال النبي ﷺ" :إِنَّ الْغَضَبَ مِنَ الشَّيْطَانِ، وَإِنَّ الشَّيْطَانَ خُلِقَ مِنَ النَّارِ] "سنن أبي داود، كتاب الأدب، باب ما يقول عند الغضب، ح 4784 - تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، طبعة المكتبة العصرية، جـ4، ص 410.[

- الغضب غير المبرر يفتح باب الشيطان، ويجعل الإنسان يتصرف كالسبع.

قال تعالى في حق فرعون" :إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ) "القصص: 4.(

ثالثاً: النباح والثرثرة (كالكلب)

الكلب ينبح على كل من يمر، كثير الصوت قليل الفعل. وهذا التشبيه ورد بوضوح في القرآن الكريم في قصة بلعم بن باعوراء" :فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث "[الأعراف: 176]. كما قال الشيخ ابن تيمية: "التشبه بالبهائم في الأمور المذمومة مذموم منهي عنه: في أصواتها وأفعالها."

صفات التشبه بالكلب

- الانشغال بالثرثرة والتحدث فيما لا يعنيه :كثرة الكلام بلا فائدة.
- كثرة الجدال والمراء بغير علم :التشاغل بالمجادلة العقيمة.
- إضاعة الوقت في الكلام الفارغ :الوقت الذي يمكن استغلاله في الطاعة يضيع في اللغو واللهو.
- النفاق وتعدد الوجوه :صديق الجميع، يمدح من أمامه ويذمه من ورائه.

- الغيبة والنميمة :ذكر عيوب الناس والتحدث بأسرارهم.

حديث هام

قال النبي ﷺ" :مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ] "سنن الترمذي، كتاب الزهد، باب ما جاء فيمن حسن إسلامه، ح 2318 - تحقيق بشار عواد معروف، طبعة دار الغرب الإسلامي، 1998م، ج4، ص 265 .[فلا شك أن الانشغال بما لا يعني من أمارات حسن الإسلام، وضدها النباح والثرثرة التي تفسد الدين والدنيا.

رابعاً: اختيار القذارة والظلام (كالصرصار)

قال تعالى" :وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ) "محمد: 12 .(الآية وإن نزلت في الكفار، إلا أن صفة "الأكل كالأنعام" تصلح لكل من انغمس في الشهوات دون حدود وغاب عن الآخرة. أما الصرصار فهو أشد: لأنه يختار القذر والظلام عن وعي وإصرار ويعشقها، لا لأنه جاهل ولا مضطر.

صفات التشبه بالصرصار

- الإصرار على المعاصي مع العلم بها :يعرف أن هذا حرام، وهذا يقود إلى جهنم، لكنه يصر عليه إصراراً.
- اختيار الرفقة السيئة والبيئات الفاسدة :يفضل جلاس السوء على جلاس الخير.
- الإعراض عن النور رغم توفره :يتنقل بين النعم والآيات ثم يعرض عنها متعمدا.
- التلذذ بالكذب والغيبة والفواحش :يجد لذته في الحرام.

بعض الناس يكونون أسوأ من الصرصار: الصرصار يعيش في الظلمة لأنه لم يخلق للنور، أما ابن آدم فيعرض عن النور رغم قدرته عليه؛ وهذا أشد خطراً.

خامساً: التقليد الأعمى (كالنعجة – الخروف)

النعجة تتبع الراعي أينما ذهب دون تفكير أو تمييز.

صفات التشبه

- اتباع كل ناعق دون تمييز :يتبع أي داعٍ، في أي اتجاه، بلا سؤال عن الحق.
- تقليد العادات والتقاليد المخالفة للشرع :يفعل ما يفعله الناس، حتى لو كان باطلاً.
- الانجراف خلف الموضات والأفكار الهدامة :يركب كل موجة جديدة دون تثبت.
- قبول ما يقوله الكبار دون نقد أو وعي :يقلد الآباء والقادة، حتى وإن كانوا على خطأ.

قال تعالى في وصف حال المشركين" :إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ "[الزخرف: 23]. فهذه الآية تذم من قلد آباءه في الكفر دون أن يستعمل عقله أو يطلب الدليل.

قال الشيخ ابن تيمية: "التشبه بالبهائم في الأمور المذمومة... يورث مشابهة الأخلاق"، والنتيجة: تصبح الروح تابعة، والمبادئ مشوشة، والعمل بلا بصيرة.

الفصل الرابع

"أولئك كالأنعام بل هم أضل" – متى يصبح الإنسان أسوأ من البهيمة؟

أولاً: الآية التي تهز القلوب

قال الله تعالى" :وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ"(الأعراف: 179) .

هذه آية عظيمة فيها وصف لمن خلقهم الله لجهنم من الجن والإنس. لاحظ أن الله لم يقل "ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس" عبثاً، بل هم الذين هيأهم الله لعمل أهل النار بعلمه الأزلي.

- "لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا :"قلوبهم لا تعقل الحقائق الإيمانية، ولا تميز بين الخير والشر.
- "وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا :"أعينهم لا تبصر آيات الله في الآفاق والأنفس، أو تبصرها فلا تعتبر بها.
- "وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا :"آذانهم لا تسمع سماع قبول وتدبر، أو تسمع الحق فلا تتبعه.

قال ابن كثير رحمه الله في تفسيرها: "يعني: ليس ينتفعون بشيء من هذه الجوارح التي جعلها الله سببا للهداية."

ثانياً: لماذا الأنعام خير من هؤلاء؟

حكمة التشبيه: الإنسان خلق للعبادة، فأعرض عنها

يقول ابن كثير: "فإن الأنعام تعقل ما خلقت له، وهؤلاء خلقوا لعبادة الله وحده لا شريك له، وهم يعبدون غيره ويشركون به، مع قيام الحجة عليهم، وإرسال الرسل إليهم."

- الأنعام :تعمل للبقاء والنسل، وتؤدي وظيفتها الفطرية كاملة.

- هذا الإنسان :خلق ليعرف الله ويعبده، فجعل همَّه نفسه وبطنه وفرجه، وكفر بالله أو أشرك به. فهذا أسوأ حالاً من الأنعام.

الأنعام متفوقة في ثلاث

1. الأنعام تسمع صوت راعيها فتتبعه، وهؤلاء سمعوا الرسل فعصوهم.
2. الأنعام تفر من العدو وتهرب، وهؤلاء يتبعون الشيطان ويوالونه.
3. الأنعام تعرف نافعها من ضارها بفطرتها، وهؤلاء عطلوا فطرتهم فأضلوا. ولذلك قال تعالى" :أُولَـٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ."

ثالثاً: أضل من الأنعام بماذا؟

البهيمة تعمل بغرائزها، فلا ثواب ولا عقاب على تصرفاتها. أما الإنسان فله عقل وإرادة. فإذا أساء استخدام هذا العقل ليعصي الله، كان إثمه أكبر وأعظم.

يقول الطبري رحمه الله: "أولئك كالأنعام بل هم أضل: لأنهم لا يهتدون إلى ثواب، فهم كالأنعام؛ أي همتهم الأكل والشرب، وهم أضل؛ لأن الأنعام تبصر منافعها ومضارها وتتبع مالكها، وهم بخلاف ذلك."

شاهد من السنة

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ" :إِذَا سَمِعْتُمْ نُهَاقَ الْحَمِيرِ فَتَعَوَّذُوا بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ؛ فَإِنَّهَا رَأَتْ شَيْطَانًا] "صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، باب إذا سمعتم نباح الكلاب ونهيق الحمير بالليل، ح 3303 - طبعة دار طوق النجاة، 1422هـ، ج3، ص 123 .[إذا كان الحمار يرى شيطاناً فيفزع، فما بال الإنسان يستمع إلى الشيطان وأوليائه ويتجاوب معهم طواعية؟! هذا هو الضلال الأعظم.

رابعاً: من هم هؤلاء في واقعنا؟

ليس المقصود إنساناً بعينه، بل الصفات التي ينبغي أن نحذرها:

1. الذين غلبت عليهم الشهوات :أكل، شرب، نوم، لهو، لا يذكرون الله إلا قليلاً.
2. الذين يعطلون عقولهم وأبصارهم وأسماعهم عن آيات الله :في السفر والآفاق، فلا يعتبرون بها.
3. أهل الغفلة :الذين يمرون على آيات الله فلا يتدبرونها، ويمرون على المواعظ فلا يتعظون بها.

4. أتباع الهوى :تركوا الحق واتبعوا أهواءهم، فصاروا أسوأ من الأنعام.

خلاصة هذا الفصل :أن صفة "أضل من الأنعام" تنطبق على من أعرض عن فطرته، وعطل عقله، وخالف رسل الله، وجعل غايته بطنه وفرجه، مع قدرته على الهداية والإيمان.

خلاصة الباب الرابع وتوصيات سلوكية

أولاً: الخلاصة المعرفية

1. كرّم الله الإنسان بالعقل والاختيار، وأمره بتزكية نفسه وسموها.
2. تشبيه الإنسان بالحيوان: في الصفات والأخلاق لا في الجوهر.
3. ثلاث مراتب للصفات الحيوانية:
   - محمودة بضوابط: كالقوة، الحذر، الوفاء.
   - مذمومة مطلقاً: كالعدوان، الثرثرة، التقليد الأعمى.
   - مذمومة بصورة أشد: كالإصرار على القذارة والظلمة (الصرصار).
4. النظر في الآيتين (محمد 12، الأعراف 179) يرشدنا إلى الخطر المحدق بمن جعل بطنه وفرجه همه وغفل عن ربه.
5. الإنسان إذا عطل عقله وحواسه عن الهدى، وتابع هواه بلا تثبت، صار "أضل" من الأنعام.

ثانياً: التوصيات السلوكية

التوصية الأولى: لا تكن كالأنعام

لا تجعل همك الأكل والشرب واللهو والتفاخر. خصص جزءاً من يومك للتفكر في الآخرة، وربط نعم الله (المال، الصحة، الوقت) بغايتها: العبادة وشكره.

التوصية الثانية: لا تكن سبعاً

عند الغضب: تذكر حديث "ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب". عد إلى عشرة، توضأ، أو جالس. لا تتجاوز حدود الله. عند العدوان على حقوق الآخرين: تذكر أن الله يراك، وأن الظلم ظلمات يوم القيامة.

التوصية الثالثة: لا تكن كلباً

حاسب لسانك قبل أن يتكلم: هل كلامي هذا فيه خير أم هو مجرد نباح وثرثرة؟ درب نفسك على الصمت إلا في الخير، واترك ما لا يعنيك.

التوصية الرابعة: لا تكن صرصاراً

اجعل عملك في النور، ابتعد عن أعمال الظلام، تب إلى الله إذا وقعت في ذنب ثم لا تعد. اختر جليس الخير حتى يعينك على الهداية. اجعل نور القرآن يملأ قلبك: اتل سورة النور، آيات الإيمان، أذكار الصباح والمساء.

التوصية الخامسة: لا تكن نعجة

لا تتبع كل ناعق؛ استعمل عقلك في التمييز بين الحق والباطل. قال الله تعالى" :وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ "(الإسراء: 36). ولا تكن إمَّعة يقول: إن أحسن الناس أحسنت، وإن أساءوا أسأت. بل كن صاحب بصيرة وبصيرة.

التوصية السادسة (عامة):

تذكر: الفرق بينك وبين الأنعام أنك تملك اختياراً. اختر الهدى، واختر الصفات المحمودة القوية التي ترفعك لا الصفات المذمومة التي تنزلك.

التأمل والتمرين لهذا الباب

1. اسأل نفسك كل ليلة :أي صفة من صفات الحيوانات (الأسد، الذئب، الكلب، الثعلب، الخنزير، الصرصار، النعجة) غلبت عليّ اليوم؟ هل كانت محمودة أم مذمومة؟
2. تمرين التمييز :اختر حيواناً واكتب ثلاث صفات له. ثم اكتب مقابلها ثلاث صفات بشرية مشابهة. قيّم نفسك: أي الصفات تنطبق عليّ الآن؟
3. تطبيق عملي :إذا شعرت أن فيك تشبهاً بالصرصار (اختيار الظلمة والإصرار على المعصية):
   - تب إلى الله توبة نصوحاً.
   - غيّر المكان (اخرج من الأماكن التي تعينك على المعصية).
   - غيّر الأصدقاء (افترق عن قرناء السوء).
   - ألزم أذكار الصباح والمساء، والمداومة على سورة الناس والفلق.
4. تطبيق مجتمعي :انصح بالتي هي أحسن، واحذر أن تكون "خنزيرياً" (اقتناص العثرات والشماتة). إذا أخطأ أخوك فانصحه سراً وتغافل.

ثبت المصادر والمراجع لهذا الباب

1. القرآن الكريم .
2. صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل" .الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه". طبعة دار طوق النجاة، بيروت. 1422هـ - 2001م.
3. صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج" .الجامع الصحيح". طبعة دار إحياء التراث العربي، بيروت. تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي.
4. سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث السجستاني .تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد. طبعة المكتبة العصرية، بيروت.
5. سنن الترمذي، محمد بن عيسى .تحقيق بشار عواد معروف. طبعة دار الغرب الإسلامي. 1998م.
6. ابن كثير، إسماعيل بن عمر" .تفسير القرآن العظيم". تحقيق سامي بن محمد السلامة. الطبعة الثانية. دار طيبة للنشر والتوزيع. 1420هـ - 1999م.
7. ابن تيمية، أحمد بن عبدالحليم" .مجموع الفتاوى". تحقيق أنور الباز و عامر الجزار. دار الوفاء، المنصورة. الطبعة الثالثة. 1426هـ - 2005م.
8. إسلام ويب" :بين همم الحيوان وهمم بني الإنسان". مقال دعوي https://www.islamweb.net/ar/article/133492/ .
9. إسلام ويب" :مجموع فتاوى ابن تيمية - فصل التشبه بالبهائم في الأمور المذمومة في الشرع https://www.islamweb.net/ar/library/content/22/5451/ ".
10. إسلام سؤال وجواب" :أحوال تشبيه الإنسان بالبهائم في بعض الأحاديث https://islamqa.info/ar/answers/433961 ".
11. ابن باز، عبدالعزيز بن عبد الله" :شرح حديث المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف https://binbaz.org.sa/audios/161/ ".
12. أهل القرآن" :قراءة في شخصيات البشر من خلال تشابه الطباع مع الحيوانات www.ahl-alquran.com ".
13. سفيان بن عيينة :القول المذكور في "وقفات مع سور وآيات (quranpedia.net) "وفي "بين همم الحيوان."
14. ابن القيم الجوزية" :شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر" (إشارة).
15. الطبري، محمد بن جرير" :جامع البيان في تأويل القرآن."

الباب الخامس

الطائفة الرابعة – الإنسان (كائن مكلف متفرد)

مقدمة الباب

بعد أن طوَّفنا بكم في عوالم ثلاث: عالم الملائكة النوراني، وعالم الشياطين الناري، وعالم البهائم الأرضي، نعود الآن إلى نقطة البداية التي انطلقنا منها :الإنسان .ذلك المخلوق العجيب الذي جمع في طينته من كل هذه العوالم شيئًا، ثم كُرم بالعقل والاختيار والخلافة في الأرض.

قد يتساءل القارئ: إذا كان الإنسان يحمل صفات تشبه الملائكة، وصفات تشبه الشياطين، وصفات تشبه البهائم، فما الذي يميزه عنها جميعًا؟ أليس مجرد مزيج من هذه الطبائع؟ الجواب: لا. الإنسان ليس مجرد مزيج، بل هو كائن متفرد بخصائص لا توجد في أي من الطوائف الثلاث الأخرى.

الملائكة يطيعون بلا اختيار حقيقي (فطرتهم لا تسمح بالعصيان). الشياطين يعصون بلا إمكانية حقيقية للتوبة بعد طردهم (باب التوبة مغلق عن إبليس). البهائم تعيش بغرائزها دون تكليف أو محاسبة. أما الإنسان: فهو مُكَلَّف، له عقل يُدرك به الحق، وإرادة يختار بها الخير أو الشر، ثم يُحاسَب على اختياراته.

هذا الباب هو قمة الهرم الذي بنيناه. فيه نثبت أن الإنسان، رغم تشبهه بالملائكة والشياطين والبهائم، هو أسمى منهم جميعًا حين يقوم بمهمته، وأخطر منهم جميعًا حين ينحرف. نعرض في فصوله الخمسة الفروق الجوهرية، وطبيعة الصراع الداخلي، ودرجات النفس البشرية، ولماذا قد يكون الإنسان أفضل من الملائكة في مقامات معينة، ولماذا هو أخطر من الشياطين والبهائم حين يُسخِّر عقله للشر.

إنه باب التكريم والتبشير والتحذير. فليكن القارئ على بصيرة.

الفصل الأول

الفرق الجوهري بين الإنسان وبقية الطوائف

قبل أن نستعرض الصفات المشتركة التي تشبه الإنسان بغيره، لا بد أن نستقرئ الصفات التي تميزه عن غيره تميزًا تامًا، والتي هي أساس تكريمه وتكليفه.

أولاً: العقل والتفكير المجرد

العقل هو أعظم نعمة أنعمها الله على الإنسان بعد وجوده نفسه. به يدرك الحقائق، ويميز بين الخير والشر، ويتأمل في آيات الله في الآفاق والأنفس، ويستدل على الخالق من خلقه.

قال الله تعالى" :وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا "(الإسراء: 70). هذا التفضيل يشمل العقل الذي هو مدار التكليف.

الفرق بين عقل الإنسان وعقول المخلوقات الأخرى

- الملائكة :لهم عقول، لكنها عقول لا تتجه إلى المعصية أبدًا، وليست محلاً للاجتهاد والخطأ. قال تعالى" :لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ "(التحريم: 6). فهم يعلمون الحق علمًا ضروريًا، ولا يحتاجون إلى تفكير مجرد للوصول إليه.
- الشياطين :لهم عقول، لكن وظفروها في المكر والخداع والكيد. قال تعالى عن إبليس" :قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ "(ص: 76). استخدم عقله في قياس فاسد.
- البهائم :لها إدراك حسي وغريزي، لكنها لا تملك التفكير المجرد، ولا القدرة على الاستدلال على الغائب، ولا تمييز الحلال من الحرام، ولا النية لله.

أما الإنسان: فله عقل يستطيع أن يفكر في الماضي والمستقبل، ويستنبط القوانين، ويخترع الآلات، ويؤمن بالغيب، ويتوب من الذنب، ويجاهد هواه. ولهذا كان العقل هو الشرط الأول للتكليف. يقول ابن تيمية: "العقل أساس الخطاب الشرعي، وبه يتميز المكلف من غير المكلف."

ثانياً: الإرادة الحرة والاختيار

أما الفارق الأعظم، فهو أن الإنسان مخيَّر في طاعته أو معصيته، وليس مفطورًا على أحدهما.

قال الله تعالى" :إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا "(الإنسان: 3). وقال" :وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ) "الكهف: 29.(

هذه الإرادة الحرة هي سر الابتلاء. فالملائكة لا يملكون أن يعصوا، والشياطين بعد الطرد لم يعد أمامهم خيار التوبة (إبليس استكبر ومحل من رحمة الله)، والبهائم لا اختيار لها أصلاً. أما الإنسان: فله أن يختار، وله أن يغير، وله أن يتوب، وله أن يرجع.

يقول ابن القيم رحمه الله: "محل الاختيار والجهد والمجاهدة هو الإنسان، فإنه مركوز فيه خير وشر، فيحتاج إلى تصفية الخير من الشر، بخلاف الملائكة فإنهم خير محض، والشياطين شر محض، والبهائم لا خير لها ولا شر من حيث التكليف."

ثالثاً: حمل الأمانة (سورة الأحزاب)

هذه الميزة هي أعظم ما يميز الإنسان عن سائر المخلوقات، بل هي الأصل في تكريمه وتكليفه.

قال الله تعالى" :إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ ۖ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا) "الأحزاب: 72.(

ما هي الأمانة؟

قال جمهور المفسرين: هي التكاليف الشرعية من العبادات والحدود والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وقيل: هي العقل والاختيار. وقيل: هي الطاعة والعبادة. وقيل: هي أمانة الدين.

يقول ابن كثير رحمه الله في تفسيره: "يعني: عرض الله تعالى التكاليف على هذه المخلوقات العظيمة: السموات والأرض والجبال، فأبين أن يتحملنها، وأشفقن منها؛ أي: خفن أن لا يقمن بها، وحملها الإنسان – يعني: الإنسان – وهذا من جهله وظلمه."

لماذا رفضت السموات والأرض والجبال؟

لأنها علمت أنها لا تستطيع أداء حق الله في هذه التكاليف على الوجه الكامل. والشفقة هنا: الخوف من التقصير. والإنسان حملها، ثم هو بحاجة إلى مجاهدة نفسه للقيام بها.

يقول ابن عطاء الله السكندري: "حمل الإنسان الأمانة لشرف تعينه، لا لقوته، فهو ظلوم بتحمله ما لم يقم بحقه، جهول بعاقبة أمره، ثم لا يزال بالمجاهدة والرياضة يظهر أثره."

ماذا نتج عن حمل الأمانة؟

- شرف التكليف :صار الإنسان محلاً للأمر والنهي والثواب والعقاب.
- حرية الاختيار :صار مسئولاً عن أفعاله، بخلاف من لا أمانة عليه.
- مكانة الخلافة :تأهل لأن يكون خليفة الله في أرضه.

رابعاً: تعليم الأسماء (سورة البقرة)

هذه الميزة أشار إليها القرآن في قصة سجود الملائكة لآدم.

قال الله تعالى" :وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ۖ إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ ۖ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) "البقرة: 31-33.(

ماذا يعني "تعليم الأسماء"؟

المراد: علمه الله أسماء كل شيء: أسماء الملائكة، والجمادات، والحيوانات، وغير ذلك. والأرجح: أنه علمه اللغة كلها، أو علمه خواص الأشياء ومنافعها وطبائعها. وهو تعليم خاص لم يعطه الملائكة.

يقول ابن تيمية: "هذا التعليم هو أصل خلافة آدم، فإنه يكون خليفة يحكم بين الناس بأسماء الأشياء، ويميز بينها، ويعرف حقائقها."

ما الدلالة على تفوق الإنسان؟

الملائكة مع علو منزلتهم وقربهم من الله، لم يعلموا هذه الأسماء حتى علمها الله لآدم ثم أعلمهم بها على لسانه. وهذا يدل على أن الإنسان متميز باستعداد معرفي ليس للملائكة.

قال القرطبي رحمه الله: "فيه دليل على فضيلة آدم على الملائكة، لأنه علم ما لم تعلم الملائكة، فكان به أفضل منهم."

خامساً: الاستخلاف في الأرض

وهذه الميزة الرابعة، التي أعلنها الله للملائكة قبل خلق آدم.

قال تعالى" :وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً) "البقرة: 30.(

معنى الخلافة

الخليفة: من يَخْلُف غيره في التصرف في الأرض، أي يقيم شرع الله فيها، ويعمرها بطاعته، ويحكم بالعدل. وقيل: الخليفة هو آدم ومن بعده من ذريته الصالحين.

يقول ابن جرير الطبري: "الخليفة: الذي يقوم مقام من قبله في الأرض بالعدل، فآدم كان خليفة الله في أرضه يحكم فيها بأمره."

لماذا الاستخلاف شرف وخطر؟

- شرف :لأن الله اصطفى الإنسان ليكون نائبًا عنه في أرضه، معنى تشريفي عظيم.
- خطر :لأن الخليفة محاسب على رعيته، ولا يستقيم أمره إلا بالعلم والعدل والتقوى.

يقول الشيخ الشعراوي: "الاستخلاف تكريم وتكليف؛ تكريم بأن جعله الله خليفة في أرضه، وتكليف بأن عليه أن يعمرها بالطاعة والصلاح."

الاستخلاف ثمرة لسابقات الميزات

العقل والإرادة وحمل الأمانة وتعليم الأسماء كلها مقدمات للاستخلاف. فلا يمكن أن يخلف الله في أرضه من لا عقل له ولا إرادة ولا علم ولا تكليف. فالاستخلاف هو الجامع لكل هذه الخصائص.

الفصل الثاني

الإنسان كمجال للصراع بين المَلَك والشيطان والبهيمة

بعد أن عرفنا خصائص الإنسان الفريدة، ننتقل إلى حقيقة جوهرية: الإنسان ليس كائنًا بسيطًا أحادي الطبيعة. بل هو ميدان صراع بين ثلاث قوى: قوة الخير الملائكية، وقوة الشر الشيطانية، وقوة الغريزة البهيمية.

أولاً: نموذج الصراع في النفس البشرية

قال الله تعالى" :وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا "(الشمس: 7-8). فألهم الله النفس البشرية طريق الخير وطريق الشر، وجعل لها القدرة على اختيار أي الطريقين.

هذا الإلهام يعني أن النفس مستعدة لقبول تأثير الملَك (تقوى) وتأثير الشيطان (فجور) وتأثير البهيمة (الغريزة العمياء). فأيها يُغذَّى يغلب.

يقول ابن القيم رحمه الله: "النفس الإنسانية جوهر واحد، قابل للأضداد، فهو بين داعي الملَك وداعي الشيطان وداعي البهيمة."

ثانياً: تمثيل القوى الثلاث

1. المَلَك (داعي الخير):
   - صفاته: دعوة إلى الطاعة والعبادة والصدق والعدل والرحمة.
   - مصدره: من الله عن طريق الإلهام والوحي والعقل.
   - وظيفته في النفس: مد الإنسان نحو العلو والكمال.
2. الشيطان (داعي الشر):
   - صفاته: دعوة إلى الكبر والحسد والوسوسة والمكر واليأس والتسويف.
   - مصدره: من جنود إبليس التي تسلطت على بني آدم.
   - وظيفته: زينة المعاصي في عين الإنسان.
3. البهيمة (داعي الغريزة):
   - صفاته: دعوة إلى الأكل والشرب والنوم والجماع بلا حدود، والغضب المفرط.
   - مصدره: من الجسد ونزعاته الحيوانية.

- وظيفته: جر الإنسان إلى متعته اللحظية بغض النظر عن العاقبة.

ثالثاً: الصراع الدائم

الإنسان في كل لحظة من لحظات حياته يمثل ساحة حرب بين هذه الدواعي الثلاثة. قال بعض السلف: "إن المؤمن يجاهد هواه، وإن الكافر يتبع هواه". والهوى هنا يشمل الشهوات البهيمية والأخلاق الشيطانية.

فإذا استمع الإنسان إلى داعي الملَك: صلّى، وتصدق، وعفا، وصبر، وشكر – ارتقت نفسه وصفت.
وإذا استمع إلى داعي الشيطان: تكبر، وحسد، ومكر، وأصر على الذنب – تدنَّت نفسه وظلمت.
وإذا استمع إلى داعي البهيمة: أكل حتى التخمة، نام دون قيام، انغمس في الشهوة – صار كالأنعام بل أضل.

يقول الغزالي رحمه الله في "إحياء علوم الدين": "جُبلت النفس على حب اللذات العاجلة، والشيطان يزينها، والملَك يدعو إلى الآجلة، والجسم يطلب العاجلة، وهذه حرب مستعرة لا تنقطع إلى الموت."

رابعاً: التداخل – الإنسان يجمعهما في آن واحد

العجيب أن الإنسان قد يختبر في اليوم الواحد تأثير القوى الثلاثة:

- الصباح :يصلي الفجر بخشوع (تأثير المَلَك).
- الظهر :يغضب على ولده بلا سبب (تأثير البهيمة – الغضب).
- المساء :يحسد زميله على ترقية (تأثير الشيطان – الحسد).
- الليل :يتوب ويستغفر (تأثير المَلَك والصحوة الإنسانية).

هذا هو تعقيد النفس البشرية. ولهذا فرض الله الجهاد الأكبر: جهاد النفس.

الفصل الثالث

درجات الإنسانية

قرر علماء التزكية أن النفس الإنسانية تمر بمراحل ودرجات، تعبر عن الغالب عليها من هذه الدواعي الثلاثة. وقد أشار القرآن إلى ثلاث درجات رئيسية.

أولاً: النفس الأمارة بالسوء (غالبها بهيمي)

قال الله تعالى" :وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ۚ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي) "يوسف: 53.(

صفاتها:

- دائم الأمر بالمعصية :تستجيب لداعي الشيطان والبهيمة بسهولة.
- تزيين الشر :تجعل القبيح جميلاً في عين صاحبها.
- الانقياد للشهوات والغضب والكبر :تطغى عليها الغرائز الحيوانية والأخلاق الشيطانية.
- مقاومة الحق :تدفع صاحبها إلى الجدال والمراء دون حجة.
- عدم القبول بالتوبة السريعة :تماطل وتسوّف.

يقول ابن القيم رحمه الله: "النفس أمارة بالسوء تأمر بالشر وتزينه وتدعو إليه. وهي في غالب بني آدم إلا من رحم الله."

متى تكون النفس أمارة بالسوء؟

عندما يسلم الإنسان قيادته لشهواته ونزواته، فيأكل كيفما شاء، ويغضب كيفما شاء، ويفعل ما تريد الغريزة دون رادع ديني. هذا يكون الإنسان فيه صورة إنسان، ولكنه في حقيقته تابع لشيطانه وبهيمته.

ثانياً: النفس اللوامة (تبدأ بالصحوة)

قال الله تعالى" :وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ "(القيامة: 2).

صفاتها:

- اللوم والتأنيب :تلوم نفسها على فعل السوء، وتتذكر ما فات.
- اليقظة :بدأت تشعر بتناقضها، وتسعى لإصلاح نفسها.
- تذبذب الإرادة :تارة تقوى على الطاعة، وتارة تضعف.

- التوبة والرجوع :قد تتوب ثم تعود ثم تتوب.

يقول ابن كثير رحمه الله: "النفس اللوامة: تلوم صاحبها على الخير والشر، وأكثر المفسرين على أنها تلوم على الشر إذا فعلته."

وهذه النفس هي مرحلة الانتقال من الجهل إلى العلم، ومن الغفلة إلى الذكر، ومن المعصية إلى الطاعة.

خصائص هذه المرحلة

- الندم على الذنب :لا يمر الذنب دون حسرة ومحاسبة.
- محاولة التغيير :يبذل جهدًا في الطاعات، وإن لم يكن متصلاً.
- الإحساس بالنقص :يعترف أنه ليس من أهل الكمال، فيستغفر ويتوب.

هذه النفس مؤهلة للترقي إلى المستوى الأعلى.

ثالثاً: النفس المطمئنة (تقترب من الملائكة مع بقاء الطبيعة البشرية)

قال الله تعالى" :يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي "(الفجر: 27-30).

صفاتها:

- الطمأنينة بذكر الله :قال تعالى" :أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ "(الرعد: 28) .
- الرضا بالقضاء :لا تسخط على أقدار الله، وتستقبل البلاء بالصبر والشكر.
- الغلبة على الشيطان :تغلبت على داعي الشيطان والبهيمة، وغلّبت داعي الملَك.
- التوازن :تجمع بين القوة والرحمة، والعبادة والعمل، والزهد والإحسان إلى الناس.
- البشرية باقية :لا تصل إلى درجة العصمة، لكنها مجاهدة ثابتة.

يقول ابن القيم: "النفس المطمئنة: هي التي سكنت إلى الحق واطمأنت به، ورضيت بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد نبيا. لا تزال في طمأنينتها حتى تلقى ربها."

الفرق بين المطمئنة والملائكة

النفس المطمئنة ليست ملكًا، ولا تعصم من الخطأ، لكنها إذا أخطأت بادرت بالتوبة والاستغفار، ولا تصر على الذنب. وهي أفضل من الملائكة من حيث الاجتهاد والاختيار.

الفصل الرابع

لماذا الإنسان أفضل من الملائكة في بعض المقامات؟

هذا سؤال شائك. فمن حيث الذات: الملائكة خلق من نور، لا يعصون الله ما أمرهم، وهم أقوى وأسرع في الطاعة. لكن قد يكون الإنسان في مقامات معينة أفضل منهم، وذلك لأسباب ثلاثة.

أولاً: طاعته بالاختيار لا بالفطرة

الملائكة يطيعون الله بفطرتهم، لا يمكنهم أن يفكروا في المعصية. أما المؤمن فيطيع الله رغم وجود دواعي المعصية فيه، ويجاهد نفسه وشيطانه. والعالمون يقولون: "طاعة المجاهد أفضل من طاعة المفطور."

يقول بعض السلف: "لولا أن الله جعل في آدم الشهوة ما كان أفضل من الملائكة، ولكن جعل فيه الشهوة، فأطاع بالاختيار لا بالاضطرار، فصار أفضل."

وهذا مستفاد من حديث" :الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ "[صحيح مسلم، ح 2664]. وقوة المؤمن هنا قد تشير إلى قوة الإرادة والمجاهدة.

ثانياً: صبره على البلاء

الملائكة لا يُبتلون بالمرض والفقر والجوع والخوف. أما المؤمن فيبتلى فَيصبِر، ويُثاب على صبره أضعافًا مضاعفة. قال تعالى" :إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ) "الزمر: 10.)

هذا الصبر الاضطراري مع ضعف البشرية ووجود المعصية يجعل الأجر أعظم.

يقول ابن عطاء الله السكندري: "الملائكة لهم من المقام ما لا حاجة لهم فيه إلى صبر، والإنسان له الصبر، فيكون الصابر أفضل ممن لا يحتاج إلى الصبر."

ثالثاً: توبته بعد المعصية

الملائكة لا يذنبون، فلا مكان للتوبة في حقهم. والمؤمن قد يذنب ثم يتوب توبة نصوحًا، محوًا لذنوبه. وقد قال النبي ﷺ" :التَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ "(سنن ابن ماجه، كتاب الزهد، باب ذكر التوبة، ح 4250 – طبعة دار الرسالة العلمية، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي، ج2، ص 1420، وإسناده حسن).

والتوبة فيها خضوع وذل وانكسار لله، وهو من أعلى المقامات. قال الله في وصف عباده" :وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ "(آل عمران: 135) .

هذه المرتبة لا توجد إلا في الإنسان.

تنبيه: ليس كل إنسان أفضل من الملائكة

لا يظن القارئ أن كل إنسان أفضل من الملائكة. إنما الكلام في المؤمن التقي المجاهد .أما الكافر والفاسق أضل من البهائم، وهو شر من الشياطين. قال تعالى" :إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا "(الأنفال: 55).

الفصل الخامس

لماذا الإنسان أخطر من الشياطين والبهائم؟

إن أخطر ما في الإنسان ليس قوته البدنية، بل قدرته على تلبيس الشر بثوب الحق، وذلك بواسطة عقله ولسانه. والملائكة لا تلبس. والشياطين تلبس لكن لا يصدقهم إلا الضعفاء. أما الإنسان فيستطيع أن يخدع بأسلوب مقنع.

أولاً: قدرة الإنسان على الإفساد بالحجة الباطلة مدعومة بعقله

الشيطان يغوي بالوسوسة والتزيين، لكنه لا يملك حجة قوية مستقلة. والإنسان المراوغ يستخدم عقله وبيانه في تأويل النصوص وتحريف الكلم عن مواضعه وإضلال الناس بحجج شبه عقلية.

قال تعالى في صفة المنافقين" :إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ۗوَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ "(المنافقون: 1). هذا هو الخطير: إظهار الحق وإبطان الباطل.

ثانياً: تزيين البدع والمعاصي بأنها دين

من أخطر ما يفعله شياطين الإنس أن يصبغوا البدع والضلالات بصبغة دينية، فيعتقد الناس أنهم يعبدون الله وهم يخالفون شرعه. قال النبي ﷺ" :لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَذْوَ الْقُذَّةِ بِالْقُذَّةِ "[صحيح البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب قول النبي ﷺ لتتبعن سنن من قبلكم، ح 7320 - طبعة دار طوق النجاة، ج9، ص 115]. وهذا يتحقق على أيدي شياطين الإنس.

ثالثاً: الإفساد في الأرض مع القدرة على الإصلاح

البهائم تفسد بلا وعي، والشياطين تفسد بقصد مكشوف، أما الإنسان المفسد فيفسد بعد أن كان قادرًا على الإصلاح، وهذا أعظم جرماً. قال تعالى" :وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا "(الأعراف: 56).

رابعاً: نشر الفاحشة والرذيلة باسم الحرية

ليست البهيمة تعرف الحرية والرذيلة، والشيطان لا يخترع قوانين للرذيلة. الإنسان هو من يسن القوانين التي تجعل الفواحش حلالاً باسم الحريات العامة. قال تعالى" :إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ "(النور: 19).

خامساً: استغلال الدين والوطن والمشاعر

قمة الخطورة أن يستغل الإنسان مشاعر الناس الدينية والوطنية لتحقيق أغراض شخصية أو حزبية. وهذا لا تصله إليه قدرة شيطان ولا بهيمة.

خلاصة الباب الخامس وتوصيات سلوكية

أولاً: الخلاصة المعرفية

1. الإنسان متميز عن الملائكة والشياطين والبهائم بخمس خصائص جوهرية: العقل المجرد، الإرادة الحرة، حمل الأمانة، تعليم الأسماء، والاستخلاف في الأرض.
2. الإنسان ساحة صراع دائمة بين داعي الملَك (الخير)، وداعي الشيطان (الشر)، وداعي البهيمة (الغريزة).
3. مراتب النفس ثلاثة: الأمارة بالسوء (غلبة البهيمة)، واللوامة (بداية الصحوة)، والمطمئنة (الغلبة على الشرور).
4. الإنسان الصالح قد يكون أفضل من الملائكة في ثلاث مقامات: طاعته بالاختيار، صبره على البلاء، وتوبته بعد المعصية.
5. الإنسان أخطر من الشياطين والبهائم لأنه يستطيع تلبيس الشر بثوب الحق، واستغلال العقل واللسان في الإفساد والإضلال.

ثانياً: التوصيات السلوكية

التوصية الأولى: إحياء الشعور بالاستخلاف

لا تنس أنك خليفة الله في أرضك. اسأل نفسك يوميًا: هل عمرت الأرض بالطاعة والعدل والإصلاح؟ أم أفسدت فيها؟

التوصية الثانية: إدارة الصراع الداخلي

اجعل لك "مجلس حرب" داخلي: سجل في مفكرتك في نهاية كل يوم: أي داعي غلب عليّ اليوم: المَلَك، الشيطان، أم البهيمة؟ وخطط للغد كيف تقوي داعي الملَك.

التوصية الثالثة: الترقي بالنفس

إذا كنت تشعر أن نفسك أمارة بالسوء: ابدأ بالعلاج: أكثر من الاستغفار، وأكثر من الطاعات ولو بالقليل، وابتعد عن مثيرات الشهوات.
إذا كنت في مرحلة اللوامة: استمر في التوبة ولا تيأس من الرحمة، ولا تترك محاسبة النفس.
إذا كنت في مرحلة المطمئنة: احمد الله واسأله الثبات، وانظر إلى ضعفك فلا تعجب بنفسك.

التوصية الرابعة: لا تستخدم عقلك في تلبيس الباطل

إياك أن تكون من شياطين الإنس الذين يحرّفون النصوص، أو يروجون للبدع، أو يخدعون الناس باسم الدين أو الوطنية. استخدم عقلك وبيانك في نصرة الحق فقط.

التوصية الخامسة: تذكر أنك مفضل على كثير ممن خلق الله

لا تهن نفسك بالانغماس في الشهوات والغفلة. أنت مكرم، فحافظ على كرامتك بطاعة الله.

التأمل والتمرين لهذا الباب

1. سؤال التأمل الأول :أي الخصائص الخمس (العقل، الإرادة، الأمانة، تعليم الأسماء، الاستخلاف) تشعر أنك مقصر في استثمارها؟ اختر واحدة واعمل على تطويرها هذا الأسبوع.
2. تمرين الصراع :احضر ورقة واكتب ثلاثة أعمدة: "داعي المَلَك" و"داعي الشيطان" و"داعي البهيمة". سجل في كل عمود الأفعال التي قمت بها اليوم والمصدر الغالب لها. ثم احسب النسبة.
3. تمرين الدرجات النفسية :قيم نفسك اليوم: أين أنت؟ عندما تغضب وتتلفظ – هل أنت أمارة بالسوء (لا تندم) أم لوامة (تندم بعدها) أم مطمئنة (تجاهد ولا تنفعل)؟ اكتب خطة للترقي درجة واحدة هذا الشهر.
4. تطبيق المقامات الثلاثة:

- اختر طاعة تفعلها باختيارك الصعب (كصلاة الضحى، صدقة يومية) وتذكر أن طاعتك بالاختيار خير من طاعة الملائكة التي لا جهاد فيها.
- واجه بلاءً اليوم بالصبر (صبر عن معصية، صبر على أذى) واحتسب الأجر.
- إذا أذنبت: بادر بالتوبة والاستغفار، وتذكر أن التائب من الذنب كمن لا ذنب له.

ثبت المصادر والمراجع لهذا الباب

1. القرآن الكريم .
2. صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل. "الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه". طبعة دار طوق النجاة، بيروت. 1422هـ - 2001م.
3. صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج. "الجامع الصحيح". طبعة دار إحياء التراث العربي، بيروت. تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي.
4. سنن ابن ماجه، محمد بن يزيد القزويني. تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي. طبعة دار الرسالة العلمية.
5. ابن كثير، إسماعيل بن عمر" .تفسير القرآن العظيم". تحقيق سامي بن محمد السلامة. الطبعة الثانية. دار طيبة للنشر والتوزيع. 1420هـ - 1999م.
6. الطبري، محمد بن جرير" .جامع البيان في تأويل القرآن". تحقيق أحمد محمد شاكر. طبعة مؤسسة الرسالة. 1420هـ - 2000م.
7. القرطبي، محمد بن أحمد" .الجامع لأحكام القرآن". تحقيق عبد الله التركي. طبعة مؤسسة الرسالة. 1427هـ - 2006م.
8. ابن تيمية، أحمد بن عبدالحليم" .مجموع الفتاوى". تحقيق أنور الباز و عامر الجزار. دار الوفاء، المنصورة. الطبعة الثالثة. 1426هـ - 2005م.
9. ابن القيم الجوزية، محمد بن أبي بكر" .مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين". تحقيق محمد حامد الفقي. طبعة دار الكتاب العربي.
10. الغزالي، أبو حامد" .إحياء علوم الدين". تحقيق عبد الله الخالدي. طبعة دار الكتب العلمية، بيروت. 1425هـ - 2004م.
11. ابن عطاء الله السكندري" .الحكم العطائية". شرح وتقديم. طبعة دار الجيل.

12.إسلام ويب" :فضل الإنسان على الملائكة والصبر والتوبة". مقالات متفرقة.

13.د. عمر سليمان الأشقر" :الإيمان بالملائكة وأثره في حياة الأمة."

14.د. يوسف القرضاوي" :الإنسان وحقوقه في الإسلام."

الباب السادس

التداخل والتجليات – كيف نمتلك صفات متعددة في يوم واحد؟

مقدمة الباب

تخلَّل رؤيتنا للطوائف الأربع – الملائكة والشياطين والبهائم والإنسان – ربما خشي بعض القارئ من فكرة أن الناس "تُصنَّف" تصنيفاً حاداً، فيُقال: هذا مَلَكي، وهذا شيطاني، وهذا بهيمي. كلا، إن الحقيقة أعقد وأدق من ذلك.

إن الإنسان ليس أحادي اللون، وإنما هو لوحة متعددة الألوان، تظهر فيها اليوم صفات ملائكية، وغداً تلوح صفات بهيمية، وبعد غد تتجلى نزعات شيطانية، ثم فجأة تشرق شمس التوبة الإنسانية الفريدة. وهذه هي عظمة الإنسان: ليس كونه معصوماً من الخطأ، بل كونه قادراً على الجمع بين الأضداد، ثم الاختيار في كل لحظة أيّ الطريقين يسلك.

يقول الإمام مرتضى الزبيدي رحمه الله في "إتحاف السادة المتقين": "اعلم أن الإنسان قد اصطحب في خلقته وتركيبه أربع شوائب، فلذلك اجتمع عليه أربعة أنواع من الأوصاف، وهي الصفات السبعية والبهيمية والشيطانية والربانية. وكل إنسان فيه شوب من هذه الأصول الأربعة، وكل ذلك مجموع في القلب، فكأن المجموع في إهاب الإنسان خنزير وكلب وشيطان وحكيم."

وفي هذا الباب، نقف عند هذه الحقيقة المركزية: كيف نكون صراعاً متحركاً بين هذه القوى الأربع في يوم واحد؟ ثم نستعرض شخصيات كريمة من سلف الأمة، جمعت في سيرتها العظيمة من كل صفة بطرف، ثم نؤكد أنه لا يمكن – ولن يمكن – تجريد أي إنسان من هذه الصفات بالكامل، لأن التكريم الإلهي هو الأصل الذي لا يزول بالمعصية.

ليس الهدف من هذا الباب أن نيأس من أنفسنا، بل أن نعي تعقيدنا، فنُحسن إدارة صراعاتنا الداخلية، ونتوب من زلاتنا، ونطمح إلى رحمة الله التي وسعت كل شيء.

الفصل الأول

نموذج يومي لحياة إنسان – مشهد من التناقض والتعقيد

لنرسم لوحة إنسان بسيط، ليس نبيًا ولا وليًا، بل أحدنا، يعيش يومه بين الفجر والعشاء. سنجد أن هذه الأوصاف الأربعة تتجلى فيه دون أن يشعر، وأنه ينتقل بينها بحسب السياق والموقف، وأحياناً بحسب ضعف نفسه أو قوتها.

المشهد الأول – الفجر: صلاة بخشوع (الصفة الملائكية)

قام الفجر متثاقلاً، لكنه تذكر أن خير العمل أدومه وإن قل. توضأ، ووقف بين يدي ربه، وقرأ ما تيسر من القرآن بخشوع وطمأنينة. شعر بلذة روحية لا تعادلها لذة. طلب المغفرة لذنوبه، وسأل ربه الثبات. في هذه اللحظة، كان أقرب شيء إلى الصفة الملائكية: طاعة خالصة من قلب خاشع، وعبادة متوجهة إلى الخالق بلا حائل. إنه الإنسان في أفضل حالاته.

المشهد الثاني – الظهر: الغضب على الولد بغير حق (الصفة البهيمية – السبعية)

عاد من عمله متعباً، فوجد ابنه قد أهمل واجبه المدرسي، وأصر على اللعب. فإذا به ينفعل بقوة، ويصرخ في وجهه، وربما ضربه بغير حكمة، أو قال ما لا يليق. إنه الغضب الذي لم يُحكم، والقوة التي استُخدمت في غير موضعها. وهذه صفة من الصفات السبعية كما وصف العلماء: ومن حيث سلط عليه الغضب يتعاطى أفعال السباع من العداوة والبغضاء والتهجم على الناس بالضرب والشتم.

ولكن التبشير أن الإنسان، وليس السبع، يستطيع أن يعود إلى رشده في الدقائق التالية ويستغفر لولده، ويعتذر إن بالغ. وهذا هو الفرق.

المشهد الثالث – العصر: حسد زميله على نعمة (الصفة الشيطانية)

في العمل، سمع أن زميله الذي يشاركه الرتبة نفسها قد رُقّيَ إلى منصب أعلى، وزيد في راتبه. شعر في قرارة نفسه بشيء من الامتعاض، وتمنى لو أن هذه النعمة كانت له. ربما لم يتلفظ، لكن قلبه تحرك. هذه هي الصفة الشيطانية، بل قال ابن القيم رحمه الله: "في النفس كِبر إبليس وحسد قابيل وعتو عاد وطغيان ثمود ."والحسد من تلك الصفات التي يزرعها الشيطان في قلب الإنسان.

غير أن الإنسان الحر يتنبه إلى هذه الخواطر في لحظتها، فيجاهد نفسه، ويتذكر أن القسمة من الله، ويدعو لزميله بالبركة. هذا هو الجهاد الأكبر.

المشهد الرابع – الليل: التوبة والاستغفار (الصفة الإنسانية الفريدة)

في المساء، جلس الإنسان مع نفسه، وراجع يومه. تذكر زلته في حق ولده، وحسده لزميله. بكى على خطيئته، وتوجه إلى ربه تائباً نادماً. وطلب المغفرة مخلصًا، وعزم على ألا يعود. هذه التوبة هي الإنسانية في أبهى صورها. لا الملائكة يذنبون فيحتاجون للتوبة، ولا الشياطين تابوا بعد كفرهم، ولا البهائم تشعر بالندم. نعم، الذي يخطئ ثم يتوب هو الإنسان المكرم، الذي جعل الله له باباً مفتوحاً: {وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ}.

هكذا هو اليوم الإنساني: صلاة بخشوع، ثم غضب وحسد، ثم توبة واستغفار. هذه هي حقيقة النفس التي تجمع الأضداد، وتسعى في كل يوم إلى الصعود، مع بقائها عرضة للسقوط.

الفصل الثاني

الشخصيات التاريخية التي جمعت الأضداد (أمثلة من السيرة والتراث)

ليس الجمع بين الأضداد عيباً، بل هو سنة الله في خلقه. حتى خير البشر بعد الأنبياء، كانوا نماذج عظيمة لهذا التداخل المقبول، حيث توجد عندهم الصفات الملائكية الغالبة، لكنهم لم يخلوا من آثار الطبيعة البشرية من غضب يضبطونه، أو حسد يجاهدونه.

أولاً: أبو بكر الصديق رضي الله عنه – اللين والقوة معاً

وُصف أبو بكر الصديق رضي الله عنه بأنه: "جمع بين اللين من غير ضعف، والقوة من غير شدة، فكان رحيمًا رفيقًا، ولكنه حازم صلب في أمر الله، لا تأخذه في الحق لومة لائم ."هذه هي الموازنة التي قلّ نظيرها.

ففي مواطن الرحمة، كان الصديق "الأواه" كثير البكاء والتضرع، رحيماً بالمؤمنين. وفي مواطن الشدة، كان أشد الناس على أعداء الدين، كما ظهر في حروب الردة حين قال مقولته الشهيرة: "لو منعوني عقالاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه". هذا هو الجمع بين أخلاق السيد المسيح وسيف عمر في شخص واحد، بحكمة إيمانية.

ثانياً: عمر بن الفاروق – غضبه عز ورضاه عدل

جاء في الحديث الذي رواه سعيد بن جبير عن أنس بن مالك: أن جبريل عليه السلام أتى النبي ﷺ فقال: "أقرئ عمر السلام، وأخبره أن غضبه عز، ورضاه عدل ."أتدري معنى هذا؟ أن غضب الرجل قد يكون نابعاً عن غيرة لله، فيكون سبباً لعز الدين ورفعته. وأن رضاه يكون بالإصلاح والعدل، لا عن هوى شخصي.

كان الصحابة يخافون من غضب عمر، لأنه غضب لله لا لنفسه. لكنهم لم يخافوه ظلماً، بل خافوا عدله وحزمه. فهو الذي بكى حتى اخضلت لحيته حين نزلت آية الرجم، وهو الذي قال في

خطبة له: "لو عثرت دابة في العراق لخشيت أن يسألني الله عنها". هذا هو الإنسان الذي يأتمر بأمر الله ويخاف مقام ربه، مع شدة في الحق لا تعرف التهاون.

ثالثاً: سيدنا داود عليه السلام – نبي جمع بين القوة والضعف والتوبة

قال تعالى واصفاً نبي الله داود عليه السلام: {وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعاً وأناب * فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب} (ص: 24-25).

نبي عظيم، أوتي الملك والنبوة، وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً، ويقوم نصف الليل. ومع ذلك، لما وقع في ما وقع – إن كان ذنباً أو ترك الأولى – بادر إلى الاستغفار والركوع والبكاء .إنه نموذج العظمة الإنسانية التي لا تعني العصمة، بل تعني الرجوع السريع إلى الله بعد الزلة. وهذا هو الجمع بين القوة في طاعة الله، والتواضع في التوبة إليه.

رابعاً: أقوال السلف والعلماء في جمع الخير والشر

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "وإذا اجتمع في الرجل الواحد خير وشر وفجور، وطاعة ومعصية، وسنة وبدعة، استحق من الموالاة والثواب بقدر ما فيه من الخير، واستحق من المعاداة والعقاب بحسب ما فيه من الشر."أي: لا يُحكم على الإنسان حكماً مطلقاً، فهو دائماً مركب من أضداد، والأصل في المسلم الإيمان والتقوى، وإن كان فيه أخطاء أو معاصٍ.

وقال ابن القيم رحمه الله: "سبحان الله، في النفس: كِبر إبليس وحسد قابيل وعتو عاد وطغيان ثمود وجرأة نمرود واستطالة فرعون وبغي قارون."لكنه بالمقابل يقول: وفي النفس أيضاً شجاعة موسى، وصبر أيوب، وصدق إبراهيم، وحب يعقوب، وطهارة عيسى، وخلق محمد ﷺ. فالنفس ميدان قابل لكل صفة، والخيار للإنسان.

الفصل الثالث

لماذا لا نستطيع تجريد أي إنسان من الصفات الثلاث بالكامل؟

(تكريم الله لبني آدم يبقى أصلاً رغم المعصية)

قد يُساء فهم هذا الباب، فيُظن أننا نريد أن نجرد الإنسان من كرامته، أو نجعله كالبهائم والشياطين في كل الأحوال. كلا. بل نريد أن نثبت حقيقة شرعية دقيقة: أن التكريم الإلهي هو الأصل الذي لا يزول بالإنسان، مهما أذنب أو أساء.

أولاً: التكريم أصل ثابت لكل إنسان

قال الله تعالى : وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا -الإسراء: 70.

يقول ابن كثير رحمه الله في تفسيرها: "يخبر تعالى عن تشريفه لبني آدم وتكريمه إياهم، في خلقه لهم على أحسن الهيئات وأكملها... وجعل لهم سمعًا وبصرًا وفؤادًا، يفقه بذلك كله وينتفع به، ويفرق بين الأشياء، ويعرف منافعها وخصائصها ومضارها ."والألوسي البغدادي يؤكد: "إن التكريم يشمل بني آدم قاطبة برهم وفاجرهم ."فحتى الفاسق والكافر مكرم بالعقل والجسد والحواس، وهي أصل التكريم الخَلقي قبل النظر إلى الاختيار.

ثانياً: الصفات المذمومة لا تلغي الجوهر المكرم

عندما شبه الله بعض الناس بالأنعام أو قال عنهم "كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ"، فإنه يتحدث عن صفاتهم الطارئة وأخلاقهم المذمومة، لا عن جواهرهم. فالإنسان يظل ابن آدم الذي نفخ الله فيه من روحه، وإذا تاب ورجع، عاد أدراجه إلى الكرامة التي خلق عليها. لأنه جبل على الفطرة ولا يخرج منها بالكلية. ولهذا قال ابن تيمية: "لا يخرج العبد من الإيمان بالكلية إلا إذا جحد ما يعتقده المؤمنون". فالمعاصي والصفات الذميمة لا تخرج الإنسان من دائرة كونه مخلوقًا مكرمًا.

ثالثاً: الأمل في التغيير هو الفرق الأعظم بين الإنسان والبهيمة

البهيمة لا تتغير طباعها، والشيطان لا يتوب. أما الإنسان فيستطيع في أي لحظة أن يقلب الموازين، ويتوب توبة نصوحاً. لهذا قال بعض السلف: "ليس العاقل الذي يعلم الخير من الشر، وإنما العاقل الذي يعلم خير الخيرين وشر الشرين."لأن اختيار الإنسان هو الذي يصنع الفارق. إذا كان الإنسان اليوم غضوباً، يستطيع غداً أن يكون حليماً. وإذا كان اليوم جباناً، يستطيع أن يتدرب على الشجاعة في الحق. هذه هي النعمة التي لا يشاركه فيها مَلَك ولا شيطان ولا بهيمة.

رابعاً: علاج الرجاء والمغفرة

قد يتسلل إلى النفس اليأس إذا اكتشف الإنسان فيه كل هذه الأضداد: "كيف لي أن أتوب وكل هذه الصفات المذمومة تجري في عروقي؟". ولكن تذكر أن الله قال: {إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ}. فما دمت لم تيأس من رحمته وتتب، فباب التوبة مفتوح، وفضله واسع.

حتى الأنبياء، وهم أطهر الخلق، لم يتمنوا أن يكونوا بلا خطأ؛ بل كانوا يستغفرون ويستغفرون. فهذا هو درب الإنسانية: عِلم بالتقصير، وسعي إلى الكمال، وتطامن إلى الله بالذنب والاستغفار. فلا يظن إنسان أن كثرة الصفات الواردة في هذا الكتاب تحبط عمله، بل تذكره بجهاده اليومي الدؤوب.

خلاصة الباب السادس وتوصيات سلوكية

أولاً: الخلاصة المعرفية

1. الإنسان في يومه الواحد ينتقل بين الأوصاف الأربعة: ملائكية (طاعة وعبادة)، وسبعية (غضب مفرط)، وشيطانية (حسد وكبر)، وبهيمية (شهوة عمياء).
2. شخصيات عظيمة كأبي بكر وعمر وداود عليهم السلام جمعت الأضداد: القوة والرحمة، والغضب لله والعدل، والملك والنبوة مع التوبة والاستغفار.
3. لا يمكن تجريد أي إنسان من الصفات الثلاث بالكامل، لأن التكريم الإلهي هو الأصل الثابت لكل بني آدم، برهم وفاجرهم، ولا تلغي المعاصي هذا التكريم.
4. الاستفادة من هذه المعرفة هي في إدارة الصراع الداخلي، لا في اليأس منه.

ثانياً: التوصيات السلوكية

التوصية الأولى: محاسبة النفس اليومية

في نهاية كل يوم، خذ ورقة وقسّمها إلى أربعة أعمدة: "ملائكي"، "شيطاني"، "سبعي (بهيمي)"، "إنساني تائب". دوّن في كل عمود ما صدر منك اليوم. ثم احسب النسبة. هذا التمرين يجعلك واعياً بذاتك، ولا يجعلك تغفل عن أخطائك، ولا تهلك بها.

التوصية الثانية: تمرين اليوم الواحد

اختر يومًا واحدًا في الأسبوع يكون "يوم المراقبة الذاتية". حاول في أول النهار أن تعاهد نفسك على ثلاث: أن تكون طاعتك خالصة لله (ملائكي)، وأن توقف غضبك عند حده ولا تتجاوزه (كبت السبعية)، وأن لا تغتاب أحداً أو تحسده أو تمكر به (كبت الشيطانية). عند المساء، قيم معركتك.

التوصية الثالثة: استحضار سيرة الصالحين

إذا أحسست باليأس من نفسك لكثرة الصفات المذمومة التي تجدها فيها، فاذكر سيرة الصديق والفاروق وداود. لقد كانوا بشراً، وفيهم من الصفات المذمومة بقدر من الله، ثم تغلبوا عليها وتابوا منها. أنت قادر على مثل صنيعهم.

التوصية الرابعة: التفريق بين الذنب الدائم والتوبة السريعة

الذنب ليس قاتلاً، والإصرار هو القاتل. اجعل "التوبة والاستغفار" صفة إنسانية يومية لك. كما قال الحسن: "إن الله لم يجعل العمر إلا ليتنافس فيه أهل التوبة". وقل في كل مساء: رب اشرح صدري، ويسر أمري، واغفر لي ذنبي.

التوصية الخامسة: الرجاء وعدم اليأس

لا تظن أن كثرة هذه الصفات الواردة في الكتاب تعني أنك شيطان في جسد إنسان، أو أنك بهيمة في صورة آدمي. هذه الصفات تكون أحياناً طارئة وغالبة، ولكن جهادك اليومي هو الذي يحسم المعركة. فارفع رأسك أنك ابن آدم الذي كرمه الله، وتجاوز عن ذنبه إذا هو تاب إليه.

التأمل والتمرين لهذا الباب

1. سؤال التأمل الأول :كم مرة في الأسبوع تغلب عليك الصفة الملائكية (صلاة بخشوع، صدقة سرية)؟ وكم مرة تغلب عليك الصفة الشيطانية أو السبعية؟
2. تمرين الجدول الأسبوعي :ارسم جدولاً لأيام الأسبوع، وسجل في كل يوم "الغلبة الغالبة". في نهاية الأسبوع، احسب التوزيع. ماذا اكتشفت؟

من أعظم ما يبعث على الرجاء أنك متى ما تبت، محوتَ صفحة الماضي كاملة. فلا تيأس من نفسك وإن كثرة ذنوبك، وارفع رأسك إلى السماء، واسأل ربك القبول والثبات.

ثبت المصادر والمراجع لهذا الباب

1. القرآن الكريم .
2. الزبيدي، محمد مرتضى الحسيني" .إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين". إسلام ويب، المكتبة الإسلامية. مصدر إلكتروني.
3. ابن تيمية، أحمد بن عبدالحليم" .مجموع الفتاوى". إسلام ويب، المكتبة الإسلامية. مصدر إلكتروني.
4. ابن القيم الجوزية، محمد بن أبي بكر" .مدارج السالكين" (مصدر منقول).
5. "التكريم الإلهي لبني آدم ."إسلام ويب، موسوعة الفتاوى. مصدر إلكتروني.
6. "صفات أبي بكر الصديق ."مركز الفكر الرابع للدراسات والبحوث. مصدر إلكتروني.
7. "باب ما روي أن غضب عمر عز ورضاه عدل ."إسلام ويب، المكتبة الإسلامية، كتاب فضائل عمر بن الخطاب.
8. "وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه ."إسلام ويب، المكتبة الإسلامية، تفسير التحرير والتنوير.
9. ابن كثير، إسماعيل بن عمر" .تفسير القرآن العظيم". مصدر منقول.

الباب السابع

التوصيات السلوكية والأخلاقية والعقدية

مقدمة الباب

بعد أن طُفنا في عوالم الملائكة والشياطين والبهائم، وتأملنا خصوصية الإنسان وتداخل هذه الصفات فيه، حان الوقت لنقف وقفة عملية. هذا الباب ليس للقراءة فقط، بل للحياة. إنه دستور الممارسة اليومية التي تحوّل المعرفة إلى سلوك، والوعي إلى تزكية.

الغاية من الكتاب كلها تتجلى هنا: أن نخرج من التنظير إلى التطبيق، ومن التشخيص إلى العلاج. فليس العيب أن تجد في نفسك نزعة بهيمية أو شيطانية، بل العيب أن تستسلم لها دون محاولة للتغيير. ولذلك سمّى الله المؤمنين "الذين جاهدوا فينا" [العنكبوت: 69]، فالجهاد الأكبر هو جهاد هذه النفس التي تأمر بالسوء.

سنقسم هذا الباب إلى ثلاث طبقات من التوصيات، تتدرج من الأعماق إلى السطح: التوصيات العقدية (ما نؤمن به في قلوبنا)، ثم التوصيات الأخلاقية (الصفات التي نزرعها في نفوسنا بالتمرين والرياضة)، ثم التوصيات السلوكية (الأفعال اليومية الملموسة). هذا الترتيب مهم، لأن السلوك الصحيح ينبثق من الأخلاق الصحيحة، والأخلاق الصحيحة تنبثق من العقيدة الصحيحة.

نسأل الله أن يجعل هذا الباب مفتاحاً للتغيير، وأن يثبتنا على ما يرضيه.

أولاً: التوصيات العقدية (ما نؤمن به)

عقيدة الإنسان هي البوصلة التي توجه حياته. إذا فسدت البوصلة، ضل الطريق وإن كثرت الخطوات. وإذا صلحت، استقام المسير وإن تعثر أحياناً. نضع بين يدي القارئ ثلاث عقائد جوهرية، نابعة من هذا الكتاب، لتصبح منطلقاً لكل سلوك صالح.

.1الإيمان بتكريم الله لآدم وذريته، وعدم اليأس من النفس مهما تدنت

قال الله تعالى" :وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ "(الإسراء: 70). هذا التكريم ليس خاصاً بالأنبياء والصالحين، بل هو لكل ابن آدم، حتى الكافر والفاجر، في أصل خلقه. فلكل إنسان عقل يميز به، وإرادة يختار بها، وكرامة لا تسلب بالمعصية.

فلا تيأس من نفسك مهما رأيت فيها من صفات مذمومة. فالذي خلقك يعلم ضعفك، وجعل باب التوبة مفتوحاً لك. قال تعالى" :قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا" (الزمر: 53).

يقول ابن تيمية رحمه الله: "لا يخرج العبد من الإيمان بالكلية إلا إذا جحد ما يعتقده المؤمنون". فالإنسان المؤمن وإن أذنب يبقى مؤمناً ناقص الإيمان، والتوبة تجدد الأمل. فلا يجوز لأحد أن يحكم على نفسه أو على غيره بالهلاك. رحمته سبقت غضبه.

الثمرة العملية لهذا الإيمان :متى وقعت في ذنب أو رأيت في نفسك صفة ذميمة، لا تقل "أنا خبيث، لا أصلح" – بل قل "أنا ابن آدم أخطئ، وخير الخطائين التوابون". وتب إلى الله فوراً، وارجُ رحمته.

.2الإيمان بأن الحساب سيكون على النيات والاختيارات، لا على الغرائز

هذا الإيمان يريح القلب من وساوس الشيطان التي تقول: "أنت فيك صفة البهيمة، وفيك صفة الشيطان، فأنت ملعون لا محالة". كلا، الحساب يوم القيامة يكون على ما اخترته أنت بإرادتك، لا على ما جُبلت عليه فطرتك.

قال النبي ﷺ" :إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ لِأُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا، مَا لَمْ تَعْمَلْ أَوْ تَتَكَلَّمْ "[صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب إذا لم يعمل بجوارحه، ح 5269 – طبعة دار طوق النجاة، ج6، ص 238]. فالخواطر التي تمر بالقلب من غضب أو حسد أو شهوة، ما دام الإنسان لم يستسلم لها ولم يعمل بها، فلا إثم عليه. بل إن مجاهدته لها تتحول إلى حسنات.

قال ابن القيم رحمه الله: "النفس أمارة بالسوء، والهوى يدعو إلى الشر، والشيطان يزينه، والرب تعالى يمتحن عباده بهذه الأضداد، ليتبين الصادق في حبه لله ممن يدعيه."

الثمرة العملية :لا تشغل نفسك بالوساوس والخواطر التي لا تستطيع منعها، ولكن احتسب أجر مجاهدتها. كلما شعرت بغضب أو حسد، فأنت تثاب على مقاومتك، لا على وجود المشاعر العابرة.

.3الإيمان بأن الإنسان هو المسؤول الوحيد عن تغذية الصفات التي يسود بها

قال الله تعالى" :إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ "(الرعد: 11). أيها القارئ، أنت وحدك من يقرر أي طبع من الطبائع الأربع تسود فيك: الملائكية، أم الشيطانية، أم البهيمية. ولدت باستعدادات فطرية، لكنك أنت الذي تغذيها أو تجوعها.

فمن تغذى على العبادات، والذكر، وقراءة القرآن، ومجالسة الصالحين – نمت فيه الصفات الملائكية وغلب داعي الخير.

ومن تغذى على متابعة الشهوات، ومجالسة السوء، والتفكير في الشر – نمت فيه الصفات البهيمية أو الشيطانية.

يقول ابن تيمية رحمه الله: "صلاح القلب واستقامته على الصراط المستقيم موقوف على تمام محبة الله، واستيلائها على القلب، حتى لا يبقى فيه محبة لغيره أصلاً ... فإن القلب متى كانت فيه محبة لله ومحبة لغيره، كان فيه شرك."

الثمرة العملية :لا تلق باللوم على الشيطان وحده، ولا على جيناتك، ولا على تربيتك. أنت الآن مسؤول عن اختياراتك. وكل يوم هو فرصة جديدة لتغذية الصالح في نفسك.

ثانياً: التوصيات الأخلاقية (صفات نزرعها)

بعد أن ثبتنا العقيدة الصحيحة في قلوبنا، ننتقل إلى مرحلة الرياضة الأخلاقية: وهي التمرن على صفات الكمال مع الصبر والمثابرة. هذه تمارين يومية، قد تبدو بسيطة، لكنها تصنع المعجزات في النفوس.

.1استراتيجية "العدو والصديق الداخلي": تحديد أي صفة تسيطر علينا في موقف معين

كل إنسان فيه صديق داخلي يدعوه إلى الخير (وهو داعي الملَك، أو الإلهام الرباني)، وفيه عدو داخلي يدعوه إلى الشر (وهو داعي الشيطان). والصراع قائم بينهما.

التمرين العملي :في أي موقف يواجهك، توقف لثانية واسأل نفسك: "من الذي يتحكم بي الآن؟ هل هو صديقي أم عدوي؟"

- إذا شعرت برغبة في مساعدة فقير، أو الصلاة بخشوع، أو الصدق في القول – هذا صديقك الداخلي، فاتبعه.
- إذا شعرت بالغضب بلا سبب، أو الحسد، أو الرغبة في الكذب أو الغيبة – هذا عدوك الداخلي، فجاهده.

تذكر قول الله تعالى" :إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي "(يوسف: 53). فكن من الذين رحمهم الله بأن جعلوا أمارة السوء تحت أقدامهم. وسجل كل يوم الموقف الذي استطعت فيه تمييز عدوك من صديقك.

.2تمرين "الملاك الداخلي": يومياً 5 دقائق تخيل أنك ملاك – كيف تتصرف؟

خلق الله الملائكة بصفات من الطاعة المطلقة والحياء والسرعة إلى الخير والبعد عن الكبر والحسد. أنت لست ملكاً، لكن يمكنك أن تتخيل نفسك في مقامهم للحظات، ثم تسعى إلى تحقيق ذلك في الواقع.

التمرين العملي :خصص 5 دقائق يومياً، في هدوء، وأغمض عينيك. تخيل أنك ملك مقرب، لا تعرف المعصية، ولا تحسد، ولا تتكبر، دائماً في طاعة وذكر. كيف سيكون يومك؟ كيف ستتعامل مع الناس؟ كيف ستنظر إلى الدنيا؟ بعد ذلك، قم من تخيلك، وابدأ في تطبيق ولو جزءاً بسيطاً مما تخيلته.

هذه طريقة علمية في التدريب على الأخلاق، يستخدمها المربون. وقد قال السلف: "من استحى من الله وهو في الخلاء، استحيا منه في الملأ". فالتخيل بالخير يزرع الخير.

.3تمرين "الحيوان الداخلي": تحديد أي حيوان تميل إليه – ثم ترويضه

كل إنسان فيه ميل فطري لصفات حيوانية معينة: ربما تميل إلى الغضب والصولة (كالأسد)، أو إلى المكر والخداع (كالثعلب)، أو إلى القذارة والإصرار على الخطأ (كالصرصار). بدل أن تنكر هذه الصفات وأنت تجدها في نفسك، اعترف بها، ثم قم بترويضها.

التمرين العملي:

- اكتب في ورقة: "الحيوان الذي أميل إليه الآن هو."______ :
- اكتب ثلاث صفات لهذا الحيوان تجدها في سلوكك.
- اكتب بجانب كل صفة خطة لترويضها: كيف تخفف منها، أو توجهها إلى الخير.
- مثال: إذا كان حيوانك هو الأسد (الغضب)، فخطة الترويض: عند الغضب، أتوضأ، وأغير مكاني، وأذكر حديث "ليس الشديد بالصرعة."
- كرر هذا التمرين كل أسبوع، ولاحظ التحسن.

.4تمرين "الشيطان الداخلي": اكتشاف مواطن الكبر والحسد في القلب ثم استئصالها بالتواضع والدعاء

الشيطان لا يدخل القلب من باب واحد، بل يبحث عن نقاط الضعف: الكبر، الحسد، حب الرياسة، الغضب، البخل. وهذه الصفات قد تكون كامنة فينا لا نشعر بها. يحتاج المؤمن إلى جلسة محاسبة أسبوعية يتفقد فيها قلبه.

التمرين العملي:

- كل ليلة جمعة (أو أسبوعياً)، اجلس مع نفسك وراجع مواقف الأسبوع.

- اسأل نفسك: هل شعرت بالكبر تجاه أحد؟ هل حسدت أحداً على نعمة؟ هل أحببت أن يسمع الناس بعلمي أو عبادتي؟ هل غضبت غضباً أعمى؟
- إذا وجدت شيئاً من ذلك، فقل: "اللهم طهر قلبي من الكبر والحسد والرياء. اللهم اجعلني عبداً متواضعاً لك، محباً للخير لإخواني."
- ثم اختر صفة واحدة تعمل على علاجها في الأسبوع القادم. قال النبي ﷺ" :الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ] "صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه، ح 91 – طبعة دار إحياء التراث العربي، ج1، ص 93.]

ثالثاً: التوصيات السلوكية (أفعال يومية)

هذه مجموعة من الوصايا العملية، المجرّبة، التي يمكنك أن تطبقها في لحظات الضعف والهوى، فتعينك على كبت الصفات المذمومة وتقوية الصفات المحمودة.

.1عند الغضب: تذكر أنك لست أسداً – اخرج من المكان

الغضب هو بوابة البهيمية في الإنسان. حين تغضب، قد تتصرف كأسود مفترس، تريد أن تكسر وتدمر. لكن تذكر: أنت لست أسداً، أنت إنسان مكلف، مسؤول عن أفعالك.

الوصاية النبوية :قال النبي ﷺ" :إِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ وَهُوَ قَائِمٌ فَلْيَجْلِسْ، فَإِنْ ذَهَبَ عَنْهُ الْغَضَبُ وَإِلَّا فَلْيَضْطَجِعْ "[سنن أبي داود، كتاب الأدب، باب ما يقول عند الغضب، ح 4782 – تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، طبعة المكتبة العصرية، ج4، ص 409]. وقال أيضاً" :لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرَعَةِ، إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ] "صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب الحذر من الغضب، ح 6114 – طبعة دار طوق النجاة، ج7، ص 112.]

التطبيق العملي:

- عندما تشعر بالغضب، قل: "أعوذ بالله من الشيطان الرجيم" – فإن الغضب من الشيطان.
- اخرج من المكان الذي أنت فيه، غير وضعيتك، توضأ إن استطعت.
- لا تتخذ أي قرار ولا تقل أي كلمة في لحظة الغضب.
- انتظر حتى تهدأ، ثم احكم بالعدل.

.2عند الحسد: قل "اللهم بارك له ولا تحرمني" – هذا يقتل الصفة الشيطانية

الحسد هو أول خطيئة وقعت في السماء (حسد إبليس لآدم)، وفي الأرض (حسد قابيل لهابيل). وهو داء قاتل للقلب، يحرق صاحبه قبل أن يؤذي غيره.

علاج الحسد النبوي:

- قال النبي ﷺ" :لا تَحَاسَدُوا، وَلا تَنَاجَشُوا، وَلا تَبَاغَضُوا، وَلا تَدَابَرُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا " صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب التحاسد، ح 6065 – طبعة دار طوق النجاة، ج7، ص 99 .
- وإذا حسدت، فادعُ للمحسود بالبركة، وقل: "اللهم بارك له فيما أعطيته، ولا تحرمني فضلك، واجعلني قنوعاً بما قسمت لي."

التطبيق العملي:

- إذا شعرت بالحسد، لا تتمنَّ زوال النعمة عن الغير، فهذا إثم عظيم.
- ادعُ له بالبركة والزيادة. هذا الدعاء يعالج قلبك أولاً، ثم ينفع أخاك.
- وتذكر أن ما عند الله خير وأبقى. قال تعالى" :وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا " الشورى: 36 .

.3عند الكسل عن العبادة: تذكر الملائكة التي لا تفتر – وتذكر أنك لست ملاكاً، ابدأ بالقليل

الكسل آفة تصيب المؤمن أحياناً، فيترك العبادة أو يؤخرها. وقد يكون ذلك من وسوسة الشيطان (التسويف) أو من غلبة النفس البهيمية.

التذكير الملائكي :الملائكة يسبحون الليل والنهار لا يفترون [الأنبياء: 20]. هذا لا يعني أن تطالب نفسك بمثل هذا الدوام، بل أن تستحضر أن العبادة الحقة دوام لا انقطاع له، وهذا يحفزك على الاستمرارية.

الوصاية النبوية :قال النبي ﷺ" :أَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ أَدْوَمُهَا وَإِنْ قَلَّ "[صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب كيف كانت سيرة النبي ﷺ، ح 6464 – طبعة دار طوق النجاة، ج8، ص 106]. ونهى عن التكلف والغلو.

التطبيق العملي:

- إذا شعرت بالكسل عن صلاة الجماعة أو قيام الليل، لا تقل "لن أصلي اليوم"، بل قل "سأصلي ولو ركعتين" أو "سأصلي الفريضة فقط" – ابدأ بالقليل.
- الاستمرارية على القليل خير من الانقطاع عن الكثير. فسر على الأرض، ولا تقفز إلى السحاب.

- ذكر نفسك أن الإرادة تزداد بالممارسة، وأن أول الطريق شبر شبر.

.4عند الشهوة العمياء: تذكر البهيمة التي تأكل حتى تشبع – وتوقف قبل الإفراط

الشهوات الثلاث: شهوة البطن، وشهوة الفرج، وشهوة المال. البهيمة لا تعرف حداً فيها. والإنسان إذا أطلقها أفسد دينه وجسده ومجتمعه.

الوصاية القرآنية :قال تعالى" :وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا "(الفرقان: 67). وقال" :وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَاۖ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا) "الإسراء: 32.(

التطبيق العملي:

- عند الطعام: قال النبي ﷺ" :مَا مَلَأَ آدَمِيٌّ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنٍ "[سنن الترمذي، كتاب الزهد، باب ما جاء في كراهية كثرة الأكل، ح 2380 – تحقيق بشار عواد معروف، طبعة دار الغرب الإسلامي، 1998م، ج4، ص 277]. فاترك ثلثاً لطعامك، وثلثاً لشرابك، وثلثاً لنفسك.
- عند الشهوة الجنسية: اقتصر على الحلال، وغض البصر، وأكثر من الصيام فهو وجاء.
- عند حب المال: تذكر أنك لن تأكل إلا ما أكلت، ولن تلبس إلا ما لبست، والباقي ستتركه للناس. فلا تكن كالبهيمة تجمع ولا تشبع.

.5يومياً: اسأل نفسك: "أي أمة من هذه الأمم غلبت عليّ اليوم؟"

هذا هو السؤال العظيم الذي يلخص كل ما سبق. كأنك تجلس مع نفسك محاسباً قبل أن تنام:

جلسة المحاسبة اليومية:

- خذ 5 دقائق قبل النوم.
- اسأل نفسك:
  - هل غلب عليّ اليوم طابع الملائكة في شيء؟ (صلاة بخشوع، صدقة، كلمة طيبة).
  - هل غلب عليّ طابع الشياطين في شيء؟ (كبر، حسد، غيبة، مكر).
  - هل غلب عليّ طابع البهائم في شيء؟ (شراهة أكل، غضب مفرط، لهو مفرط، كسل عن العبادة).
  - هل تبت واستغفرت من زلاتي؟
- إذا وجدت الغلبة للخير، فاحمد الله واسأله الثبات.

- إذا وجدت الغلبة للشر، فتب إلى الله، واعزم على تغيير ما بوسعك غداً.

توصية إضافية :دوّن إجابتك في مفكرة صغيرة، وراقب تقدمك أسبوعياً وشهرياً. هذا التمرين سيجعلك أكثر وعياً بذاتك، وسيساعدك على التحكم فيها بدل أن تتحكم بك.

ثبت المصادر والمراجع لهذا الباب

1. القرآن الكريم .
2. صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل. "الجامع المسند الصحيح". طبعة دار طوق النجاة، بيروت. 1422هـ - 2001م.
3. صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج. "الجامع الصحيح". طبعة دار إحياء التراث العربي، بيروت. تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي.
4. سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث السجستاني. تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد. طبعة المكتبة العصرية، بيروت.
5. سنن الترمذي، محمد بن عيسى. تحقيق بشار عواد معروف. طبعة دار الغرب الإسلامي. 1998م.
6. ابن تيمية، أحمد بن عبدالحليم. "مجموع الفتاوى". إسلام ويب، المكتبة الإسلامية.
7. ابن القيم الجوزية، محمد بن أبي بكر. "مدارج السالكين."
8. "كيف تتخلص من صفات الشيطان والبهائم في نفسك؟ (برامج عملية)". إسلام ويب، مقالات.
9. موقع الألوكة: "تطبيقات عملية لتربية النفس على الأخلاق المحمودة."
10. "فضل الاستغفار وأثره في تزكية النفس" – مركز الفتاوى، إسلام ويب.

الخاتمة

نحن أمم أمثالكم ولكن.. الخيار لنا

نعود في ختام هذه الرحلة إلى الآية التي كانت نقطة انطلاقنا" :وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ "(الأنعام: 38). هذه الآية التي نزلت على قلب النبي ﷺ يزفها سبعون ألف ملك، لم تكن مجرد إخبار عن تنوع المخلوقات، بل كانت فتحًا لباب التأمل في الذات الإنسانية.

قال مجاهد في تفسيرها: أي أصناف مصنفة تعرف بأسمائها .وقال قتادة: الطير أمة، والإنس أمة . وقال السدي: أي خلق أمثالكم .وأبو هريرة رضي الله عنه قال: هي أمثال لنا في التسبيح والدلالة . وأما سفيان بن عيينة فكان تأويله أعمق حين قال: "وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم في الطباع والأخلاق، لا في الصور والخلقة ."وهذا هو السر: نحن أمم أمثالهم في الصفات، متميزون عنهم في الجوهر والتكريم.

هنا تتجلى الرسالة الأساسية لهذا الكتاب :ليس عيباً أن تكون حيواناً مؤقتاً، العيب أن تموت حيواناً.

فأنت – أيها الإنسان – تعيش بين لحظة وأخرى صراعاً بين أربعة طوائف في داخلك:

- تطيع الله بخشوع كالملائكة.
- تغضب بلا حق كالسبع.
- تحسد وتتكبر كالشيطان.
- تأكل وتلهو كالأنعام.

ثم تتوب وتستغفر وتعود فتلك هي الصفة الإنسانية الفريدة التي لا يشاركك فيها ملاك ولا شيطان ولا بهيمة.

العيب ليس أن تجد في نفسك نزعة بهيمية أو شيطانية، فهذا من طبيعة البشرية التي جبلت على الضعف. قال الله تعالى" :خُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا "(النساء: 28). العيب الحقيقي أن تستسلم لهذه النزعات، وأن ترتضي لنفسك أن تكون أسير غضبك، أو عبد شهوتك، أو تابعًا لكبرك وحسدك، حتى تفارق الحياة وأنت على هذه الحال. قال النبي ﷺ" :إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالْخَوَاتِيمِ "(صحيح البخاري). فالعبرة كيف تختم حياتك، لا كيف تبدأها.

دعوة للتأمل اليومي

ندعوك – أيها القارئ – أن تجعل من الآية 38 من سورة الأنعام وردًا يوميًا لك. تلاوة بلسانك، وتأملًا بقلبك، ومحاسبة لنفسك. اجعل منها محطة يومية تسأل فيها نفسك: أي أمة من هذه الأمم غلبت عليّ اليوم؟ هل كنت قريبًا من الملائكة في طاعتك؟ أم استولت عليك الصفات الشيطانية من كبر وحسد؟ أم انزلقت إلى البهيمية فأكلت كالأنعام ولهوت كالبهائم؟

وهب نفسك خمس دقائق قبل النوم جلسة محاسبة صادقة. قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا". هذا هو الطريق إلى التزكية الحقيقية.

دعوة لقراءة دوستويفسكي والغزالي وابن القيم

هذا الكتاب لم يأت من فراغ، بل هو امتداد لعلماء أجلاء وأدباء عظماء سبقونا في هذا المضمار. إنها دعوة مفتوحة لتغوص في أعمالهم، فتستزيد بصيرة:

فيودور دوستويفسكي في رائعته "الإنسان الصرصار" – أو "مذكرات من العالم السفلي" – يصور لنا إنسانًا اختار القاع عن وعي، ورفض النور مع قدرته عليه، وأحب الظلمة والقذارة فصار كالصرصار. يصل بطل الرواية إلى آخر الحدود في إدراك انحطاطه، ومع ذلك يستمر، فهو ليس صرصارًا لأنه خلق كذلك، بل صار كذلك لأنه اختار أن يكون .هذا هو عمق فلسفته: أن الإنسان يظل حرًا في اختيار انحطاطه أو صعوده، حتى وهو في القاع.

الإمام أبو حامد الغزالي في "إحياء علوم الدين" - ولاسيما كتاب رياضة النفس وتهذيب الأخلاق - يقدم لنا خريطة كاملة لأمراض القلب وعلاجها .فهو الذي قال: إن التخليَة (تطهير النفس من الرذائل) والتحليَة (ملؤها بالفضائل) هما فرض عين على كل مسلم .وهو من عمّق مفهوم أن النفوس قابلة للتغيير، وأن الأخلاق ليست ثابتة جامدة.

ابن القيم الجوزية في "إغاثة اللهفان في مصايد الشيطان" وغيره من كتبه يفضح لنا مكائد الشيطان وطرق نفوذه إلى القلوب، ويقدم العلاج والدواء .وهو من قال: "العبد بين أربعة أعداء: الشيطان، والدنيا، والهوى، والنفس". وكتابه هذا هو مرجع لا غنى عنه في سلوك طريق التزكية.

ولم يغب عن هؤلاء الأثر العظيم للإمام سفيان بن عيينة الذي استنبط من هذه الآية حكمة جليلة: كل إنسان وفيه شبه من بعض البهائم في طباعه وأخلاقه .وهذا هو العمود الفقري لكل ما بنيناه في هذا الكتاب.

الكلمة الأخيرة: خليفة الله في أرضه – بين القوة والرحمة والعدل

وأخيرًا نصل إلى كلمة السر، إلى أصل التكريم الإلهي للإنسان. لما قال الله تعالى للملائكة" :إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً "(البقرة: 30)، كان ذلك إعلانًا عن منزلة الإنسان، ليس لأنه أقوى من الملائكة، ولا لأن أخلاقه أكمل، بل لأنه جمع بين ما لا تجتمع في مخلوق آخر.

الإنسان ليس ملكًا ولا شيطانًا ولا بهيمة، بل هو مزيج فريد، وهذه المزيج هو بالضبط ما يؤهله للخلافة. فالخليفة يحتاج قوة الأسد ليدفع الظلم والبغي، ويحتاج رحمة الملاك ليرأف بالضعيف والمسكين، ويحتاج عدلاً إلهيًا يميز بين الحق والباطل.

يقول بعض أهل العلم: "الإنسان خليفة الله في الأرض، ليس هو بمفرده بل بجماعته وأمته، وهو استخلاف مشروط بإقامة العدل، فالظلم لا يبقى في الأرض ولا يصلح ."فالخليفة هو الوكيل والنائب عن الله في تنفيذ أحكامه وعمارة الأرض وسياسة الناس بالعدل.

ولقد شرف الله الإنسان بهذه المنزلة، فجعله الكائن الوحيد المتميز بهذا الشرف من بين كل كائنات الكون .وهذا الخير العظيم تفضل به الله على الإنسان، فيتحتم أن تكون هدايته مباشرة من الله إليه، لمعرفته أن الإنسان ضعيف يحتاج إلى توجيه إلهي.

إن الخليفة الحقيقي هو الذي يوازن بين قوته ورحمته وعدله:

- قوته مستمدة من الأسد لكنها مضبوطة بالشرع، فلا تتحول إلى بغي وعدوان.
- رحمته مستمدة من الملائكة لكنها مقرونة بالحكمة، فلا تُصبح ضعفًا وخورًا.
- عدله يميزه عن كل مخلوق، فهو ميزان إلهي نصب في داخله ليفرق بين الحق والباطل.

هو الذي يعمر الأرض بالطاعة والعدل والإصلاح. هو الذي يرفع الظلم عن المظلومين، ويضع الحق في نصابه، ويتوسل القوة لحماية الضعفاء، ويمسك بزمام نفسه عند الغضب، ويتجاوز عن المسيء حين يكون العفو أجمل، ويقف في وجه الطغيان حين يكون الصمود واجبًا.

والذي لا يوازن بين هذه الصفات، يخل هو الآخر، فينحدر إلى أسفل السافلين، ويصبح أضل من الأنعام، وأخطر من الشياطين.

أي طريق تختار؟

الخيار لك وحدك. قال الله تعالى" :إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا) "الإنسان: 3.(

فإما أن تختار طريق التزكية والصعود، فتصعد في مراتب الإنسانية حتى تكون خليفة الله في أرضه، مستخلفًا فيها بالعدل والرحمة والقوة في الحق.

وإما أن تختار طريق الانحدار والهبوط، فتنزل إلى دركات البهيمية والشيطانية، فتكون شرًّا ممن حولك، وأخطر من السباع على أبناء جلدتك.

ومن اختار الطريق الأول، فقد شَهِدَ له كتابُ الله بأنه في أحسن تقويم. ومن اختار الطريق الثاني، فقد شهد عليه كتاب الله بأنه رُدَّ إلى أسفل سافلين، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات (سورة التين: 4-6).

نسأل الله أن يجعلنا من عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر. وأن يرزقنا التوبة النصوح قبل الموت، والمغفرة بعد الموت، والجنة في الآخرة.

وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت وإليه أنيب. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

تم الكتاب بعون الله وتوفيقه، والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الملاحق

الملحق الأول: جدول تلخيصي للصفات في الطوائف الأربع

الطائفة	أصل الخلقة	أبرز الصفات المحمودة	أبرز الصفات المذمومة (إن وجدت)	ما يمكن أن يتشبه به الإنسان
الملائكة	نور	الطاعة المطلقة، الحياء، السرعة إلى الخير، القوة مع الخشية، العلم والعبادة، التنزه عن الكبر والحسد	لا صفات مذمومة فيهم	الطاعة الخالصة، الحياء من الله، المبادرة إلى الخير، القوة في الحق، طلب العلم، دوام الذكر، التواضع
الشياطين	نار (مارج من نار)	لا صفات محمودة فيهم (بعد لعنتهم)	الكبر، الحسد، الوسوسة، التزيين، المكر والخداع، اليأس والقنوط، التسويف	لا تشبه بهم إلا للتحذير؛ يجب اجتناب صفاتهم كلها
البهائم والحيوانات	تراب أو ماء أو خلق من الأرض	(إذا ضبطت) القوة كالأسد، الحذر كالثعلب، الوفاء	الشبع المفرط واللهو (كالأنعام)، العدوان بلا سبب (كالسبع)، النباح والثرثرة (كالكلب)، اختيار	أخذ الصفات المحمودة بضوابط الشرع،

		كالكلب، التعاون كالنحل	القذارة والظلمة (كالصرصار)، التقليد الأعمى (كالنعجة)	واجتناب المذمومة
الإنسان	طين، ثم نفخ فيه من روح الله	العقل، الإرادة الحرة، حمل الأمانة، تعليم الأسماء، الاستخلاف، التوبة، الصبر، الاختيار	(إذا أساء استخدام قدراته) الكفر، النفاق، الظلم، الإفساد في الأرض، اتباع الهوى	هو الميزان الذي يختار؛ عليه أن يشبه الملائكة في الصالح، ويتجنب الشياطين والبهائم في الطالح

الملحق الثاني: اختبار ذاتي "أي طابع فيك يغلب الآن؟"

(أسئلة لتحليل النفس – أجب بصدق عن نفسك الآن، أو عن أحوالك في الأسبوع الماضي)

تعليمات :اقرأ كل عبارة، وحدد درجة انطباقها عليك من 1 إلى 5:

- = 1لا تنطبق عليَّ أبداً
- = 2تنطبق أحياناً قليلة
- = 3تنطبق في بعض الأحيان
- = 4تنطبق في معظم الأحيان
- = 5تنطبق دائماً

الرقم	العبارة	الدرجة(1-5)
1	أشعر بلذة روحية عند الصلاة أو قراءة القرآن بخشوع	
2	أستحي من الله أن يراني على معصية، فأتركها فوراً	
3	أسارع إلى عمل الخير إذا سنحت لي الفرصة، ولا أؤجله	
4	أكون قوياً في الحق، ولا أخاف لومة لائم	
5	أطلب العلم الشرعي لأتقرب به إلى الله	
6	أتواضع للخلق، ولا أرى أني أفضل منهم	
7	أحياناً أشعر بأني أفضل من غيري بسبب نسبي أو مالي أو علمي (اكتب العكس)	
8	أتمنى زوال نعمة عن شخص لا أحبه	
9	تأتيني أفكار وسواسية تدعوني إلى المعصية، وأجد صعوبة في مقاومتها أحياناً	
10	أضلل الآخرين أو أشجعهم على المعاصي بطرق غير مباشرة	
11	أشعر باليأس من رحمة الله إذا أذنبت كثيراً	
12	أؤجل التوبة وأقول "سأتوب غداً"	

13	آكل حتى الامتلاء التام، ولا أتحكم في شهيتي	
14	أغضب بسرعة وبشدة على من يثير غضبي، وقد أتلفظ أو أتعدى	
15	أتحدث كثيراً في ما لا يعنيني، وأدخل في جدال عقيم	
16	أختار البيئات الفاسدة والرفقة السيئة رغم علمي بذلك	
17	أتبع الناس تقليداً أعمى دون تفكير، وأقلد آبائي في كل شيء	
18	أعمل على تطوير نفسي، وأصلي الفروض في أوقاتها، وأجتهد في الطاعات	
19	إذا أخطأت، أندم وأتوب بسرعة ولا أصر على الذنب	
20	أشعر بالطمأنينة والرضا بقضاء الله، حتى في الشدائد	

طريقة التصحيح:

- اجمع درجات العبارات من 1 إلى 6 (وهي العبارات الملائكية). الحد الأعلى 30.
- اجمع درجات العبارات من 7 إلى 12 (وهي العبارات الشيطانية). الحد الأعلى 30.
- اجمع درجات العبارات من 13 إلى 17 (وهي العبارات البهيمية). الحد الأعلى 25.
- اجمع درجات العبارات من 18 إلى 20 (وهي العبارات الإنسانية المتفردة). الحد الأعلى 15.

التفسير:

- إذا كانت الدرجة الملائكية أعلى من 18 :أنت في طريق قريب من الملائكة في الصفات المحمودة. استمر وازدد ولا تعجب بنفسك.
- إذا كانت الدرجة الشيطانية أعلى من 15 :انتبه! في قلبك شيء من الكبر والحسد والمكر واليأس. ابدأ بعلاج هذه الصفات فوراً.
- إذا كانت الدرجة البهيمية أعلى من 15 :حذار من الانزلاق إلى الغرائز العمياء. ابدأ بترويض شهواتك وغضبك وكثر كلامك.
- إذا كانت الدرجة الإنسانية الفريدة (18-20) أعلى من 10 :أنت تسير في طريق التزكية الصحيح، مع الاستقامة والتوبة والطمأنينة. احمد الله واسأله الثبات.
- وأفضل الأحوال :أن تكون الدرجة الملائكية عالية جداً، والدرجة الإنسانية عالية، والدرجة الشيطانية والبهيمية منخفضة (أقل من 10 لكل منهما).

الملحق الثالث: أوراق عمل للتزكية اليومية

(7 أيام – كل يوم صفة واحدة نعالجها)

تعليمات عامة:

- خصص لكل يوم 10-15 دقيقة صباحاً لقراءة الورقة والنية للعمل، و5 دقائق مساءً للمحاسبة.
- احتفظ بدفتر تسجل فيه ملاحظاتك اليومية.
- لا تنتقل إلى اليوم التالي حتى تشعر أنك أحرزت تقدماً في الصفة المطلوبة، ولو قليلاً.

اليوم الأول: صفة الطاعة المطلقة (الملائكية)

الهدف :أن تمتثل لأوامر الله في هذا اليوم دون جدال أو تسويف أو انتقاء.

التطبيقات العملية:

1. صلِّ الفروض الخمسة في أوقاتها الأولى (قبل أن يؤخرك شيء).
2. إذا دعتك نفسك إلى معصية، فقل "لا" فوراً، وتذكر أن الملائكة لا تعصي الله.
3. أطع والديك في ما ليس معصية، بلا تذمر.

التأمل الصباحي :اقرأ الآية (التحريم: 6) "لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ"، وقل: "اللهم اجعلني من المطيعين لك باختياري."

المحاسبة المسائية :كم مرة أطعت الله اليوم بسرعة؟ وكم مرة ترددت أو عصيت؟ استغفر.

اليوم الثاني: صفة الحياء (الملائكية)

الهدف :أن تستحي من الله حق الحياء، ومن الناس في ما يخالف الشرع.

التطبيقات العملية:

1. قبل أن تفعل أي شيء، اسأل نفسك: "هل أستحي من الله لو فعلته؟."
2. لا تتكلم بفحش أو بذاءة، واترك الكلام القبيح.
3. اخفض صوتك، ولا ترفعه في غير حاجة.

التأمل الصباحي :اقرأ حديث "ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة"، وقل: "اللهم اجعل الحياء خلقاً لي."

المحاسبة المسائية :هل تكلمت اليوم بكلام يخجل منه المؤمنون؟ هل نظرت إلى محرم؟ توب واستغفر.

اليوم الثالث: صفة كبت الغضب (البهيمية – ترويض الأسد)

الهدف :أن تملك نفسك عند الغضب، ولا تتصرف كالأسد الضاري.

التطبيقات العملية:

1. إذا شعرت بالغضب، قل "أعوذ بالله من الشيطان الرجيم" فوراً.
2. اخرج من المكان، وتوضأ، أو اجلس إن كنت قائماً، أو اضطجع إن كنت جالساً.
3. لا تتخذ أي قرار وأنت غاضب، ولا تتلفظ بأذى.

التأمل الصباحي :اقرأ حديث "ليس الشديد بالصرعة"، وقل: "اللهم اجعلني شديداً بضبط نفسي عند الغضب."

المحاسبة المسائية :هل غضبت اليوم؟ كيف كانت ردة فعلك؟ هل استطعت كبت غضبك؟ إذا نجحت فاحمد الله، وإذا فشلت فتب وعاهد نفسك على التمرن أكثر.

اليوم الرابع: صفة إطفاء الحسد (الشيطانية)

الهدف :أن تنزع الحسد من قلبك، وتحبه لأخيك ما تحبه لنفسك.

التطبيقات العملية:

1. إذا شعرت بالحسد تجاه شخص، فادعُ له فوراً: "اللهم بارك له وزد من فضلك."
2. امدح من تحسده في مجلس لو كان غائباً، واذكر فضله.
3. تذكر أن الحسد يحرق حسناتك، ولا يضر المحسود إلا بإذن الله.

التأمل الصباحي :اقرأ حديث "لا تحاسدوا"، وقل: "اللهم طهر قلبي من الحسد، واجعلني أحب لأخي ما أحب لنفسي."

المحاسبة المسائية :هل حسدت أحداً اليوم؟ هل تمكنت من إطفاء الحسد بالدعاء له؟ سجل نجاحك أو فشلك.

اليوم الخامس: صفة القناعة والاعتدال (البهيمية – ترويض الشبع واللهو)

الهدف :أن تعتدل في الأكل والشرب والنوم والكلام، ولا تكون كالأنعام.

التطبيقات العملية:

1. لا تأكل حتى الامتلاء، اترك ثلثاً لطعامك، وثلثاً لشرابك، وثلثاً لنفسك.
2. لا تنم أكثر من حاجتك، واجعل الليل قياماً ولو ركعتين.
3. لا تنغمس في اللهو والترفيه دون فائدة.

التأمل الصباحي :اقرأ الآية (محمد: 12) "وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ"، وقل: "اللهم اجعل همي الآخرة، ولا تجعل الدنيا أكبر همي."

المحاسبة المسائية :كم أكلت اليوم؟ هل أفرطت؟ كم نمت؟ هل ضيعت وقتاً في اللهو؟ قيم نفسك وجاهدها غداً.

اليوم السادس: صفة التوبة النصوح (الإنسانية الفريدة)

الهدف :أن تتوب إلى الله من جميع ذنوبك، وتستغفر، وتعزم على عدم العودة.

التطبيقات العملية:

1. اجلس مع نفسك ربع ساعة، وتذكر ذنوبك الصغيرة والكبيرة.
2. اكتب ورقة بذنوبك (بينك وبين الله)، ثم مزقها بعد الاستغفار، علامة على محوها.
3. التزم بعدم العودة إلى الذنب اليوم، فكر كل مرة قبل أن تذنب.

التأمل الصباحي :اقرأ الآية (الزمر: 53) "قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ"، وقل: "اللهم تب عليَّ، إنك أنت التواب الرحيم."

المحاسبة المسائية :هل تبت اليوم من ذنب أصررت عليه؟ هل استطعت أن تترك معصية كنت تفعلها؟ استمر ولا تيأس.

اليوم السابع: صفة التذكر الدائم (جامعة كل الصفات)

الهدف :أن تجعل يومك كله تذكّراً بهذا الكتاب، وتطبيقاً لخلاصته: "أي أمة غلبت عليّ اليوم؟"

التطبيقات العملية:

1. اكتب على ورقة صغيرة: "أي أمة أنا اليوم؟ مَلَك، شيطان، بهيمة، أو إنسان تائب؟."
2. كلما مرت ساعة، انظر إلى الورقة واسأل نفسك.
3. في نهاية اليوم، سجل النتائج، وخطط للغد.

التأمل الصباحي :اقرأ الآية (الأنعام: 38)، وقل: "اللهم اجعلني من الذين فهموا هذه الآية، وعملوا بها، وأنقذوني من شر نفسي."

المحاسبة المسائية :أجب كتابة على الأسئلة:

- في كم ساعة من اليوم كانت الصفة الملائكية هي الغالبة؟
- في كم ساعة كانت الشيطانية أو البهيمية؟
- كم مرة تبت ورجعت إلى الله؟
- ما هي الصفة الأكثر احتياجاً للعلاج عندي؟

تهنئة :لقد أتممت الأسبوع الأول من التزكية. كافئ نفسك بصدقة صغيرة، أو بصلاة الضحى شكراً لله، ثم ابدأ أسبوعاً جديداً بنفس الأوراق ولكن بصفات أخرى من اختيارك، أو أعد الكرَّة.

تم الكتاب والحمد لله رب العالمين

عن المؤلف وكتبه

✦التعريف بالمؤلف:

الدكتور **سعد جبر**، أكاديمي مصري واستشاري التدريب الإعلامي، **ومن علماء الأزهر الشريف**، عمل عميدًا لكلية الإعلام بجامعة باشن العالمية، ويشغل حاليًا منصب وكيل الكلية.

قام بتدريس مواد الإذاعة في **أكاديمية الأمير أحمد بن سلمان** للإعلام التطبيقي بالمملكة العربية السعودية، وأسهم في تدريب عدد كبير من الإعلاميين العرب في مجالات الصحافة والعلاقات العامة والإذاعة والتلفزيون وبالفضائيات، كما قام بالتدريس لطلاب وأساتذة الجامعات والمدارس بعدة دول، كما قام بالتدريب على الذكاء الاصطناعي وتطبيقاته في التعليم والتدريب.

كما يشرف على **بعض المنصات التعليمية**، ويعمل استشاري في عدة مراكز إعلامية، ومستشار لعدد من **المؤسسات غير الربحية**، له رصيد علمي وإبداعي يربو على **100 كتاب** في مجالات متنوعة تشمل الإعلام، الفكر، التربية، والسياسة والاقتصاد، والأسر المنتجة والمشاريع الصغيرة والمتوسطة والتفسير والعلوم الإسلامية والابتكار، **يؤمن بأن الأسرة هي أساس المجتمع المترابط ومحضن الفرد المتوازن، وأن بناء المجتمع يبدأ ببناء الإنسان أولًا، كما يركز على رعاية الموهوبين، وبناء الحاضنات الإعلامية للمؤسسات وأكبر أهدافه مساعدة الجميع على النجاح.**

مؤلفات الدكتور سعد جبر :

م	اسم الكتاب	م	اسم الكتاب
.1	أحاديث الحب النبوية	.2	انستجرام الإمام ابن القيم
.3	أحاديث الخيرية من كلام خير البرية	.4	حفلة تفكرية
.5	خواطر مسجدية من "السيرة"	.6	30 يوم حاسمة في عمر المشاريع الناشئة
.7	خواطر مسجدية من " التفسير"	.8	حوار مفتوح مع " جيل زد "
.9	مختصر كتاب "أحاديث الأدب النبوي"	.10	مصحفي .. ورحلة العودة إليه
.11	شرح الأربعين العلمية للشنقيطي	.12	زواج بنات النبي ﷺ
.13	هل يحل القرآن مشكلتي؟	.14	البوصلة
.15	من أجل أن تزهر الروح	.16	سبع عجاف
.17	السبعة الكبار	.18	بوصلة القلوب
.19	الأربعين النبوية	.20	رحلة المتوكلين
.21	30خاطرة للتراويح	.22	الإطار القيمي للأسرة
.23	خمسون رسالة للإمام	.24	ملخص خمس كتب إدارية عالمية
.25	لطائف وفرائد قرآنية	.26	الجامعة وصناعة الوعي المجتمعي
.27	الإعلام المفقود في التعليم	.28	كود التأثير
.29	الذكاء الروحي	.30	الذكاء الاصطناعي وأطفالنا
.31	الصبر الإداري	.32	دبلوم التدريب السياسي
.33	الأسر المنتجة تمكين وإبداع	.34	وعن الرضا قالوا
.35	حرب المخدرات	.36	الكرب والدعاء
.37	المدرب الجديد وإذابة الجليد	.38	مسرحية دمى

م	اسم الكتاب	م	اسم الكتاب
.39	تسويق المشاريع غير الربحية	.40	أعشاب الجهاز الهضمي
.41	وداعا للبطالة	.42	لماذا ننشغل بالسياسة ؟
.43	دليلك إلى الدخل القليل الدائم	.44	الذكاء التسويقي
.45	مصانع الإنسان	.46	أسرار النجاح في المشاريع الصغيرة
.47	25صفحة ستغير حياتك	.48	النقد أولاً
.49	ديون "قوافل" شعر	.50	الدعاة وفضائح إبستين
.51	أسرار الكتابة الدرامية	.52	ببساطة كيف تصنع الثروات ؟
.53	هل تريد أن تؤلف كتاباً ؟	.54	في بيتنا سؤال؟
.55	كيف تمطر سحابة فكرك؟	.56	حكاية القائد البطيء
.57	التمكين والشراكة بأفريقيا	.58	القيادة التحويلية
.59	مش قد الشيلة ؟	.60	حظيرة الخنازير الغربية
.61	حبات من سنبلة الفجر مجموعة قصصية	.62	هل تعريف كيف تصلي عليه ؟
.63	الرد على الشيخ الددو	.64	إعداد التقارير الإدارية باحترافية
.65	حكايات مؤثرة	.66	شحاذ الإشارة
.67	بروتوكول المبادرات المجتمعية	.68	حين يسجد الكون ..
.69	توني بلير -المندوب السامي الجديد	.70	سر السعادة الإحسان إلى الخلق
.71	الخرس الأسري	.72	تحديات خاصة لشباب الإسلام
.73	الجزائر وحزام السافانا	.74	فن الفشل الجميل
.75	دليلك لاستثمار عقاري ناجح	.76	كسر الجليد طبعة تميز – طبعة مزيدة ومنقحة
.77	أزمة ثقة بين الممولين والمشاريع	.78	كيف تكون نجما على اليوتيوب؟
.79	الرجل النعجة	.80	عوامل نجاح وفشل مشاريع التعليم الإليكتروني
.81	ست ستات من غير رجل	.82	دبلوم القيادة الميدانية بالمنظمات غير الربحية
.83	فنون الهدنة النفسية	.84	مشكلات وحلول من حياة الرسول ﷺ
.85	الهجرة فقه جديد	.86	خمسين خطبة جمعة منتقاة
.87	المقام الإنساني بين أربعة عوالم	.88	عبد المال تاح
.89	أكذوبة القاعدة	.90	الأسباب الحقيقية للفقر والغنى
.91	الاغتنام والاستغنام	.92	الجور والفجور
.93	الحملات الإعلامية الاحترافية	.94	معجزات العصر في أفغانستان
.95	علو ودنو الهمة	.96	كارثة أبناء المهاجرين
.97	ملخصات 23 كتاب لرجال الأعمال	.98	تشابهت قلوبهم "بكائيات اليهود والشيعة:
.99	مستويات الحب	.100	اثبت أحد
.101	الحقوق الكبرى	.102	فلسفة الهدوووووء
.103	المرأة .. السردية الكاملة	.104	فخ الخوف
.105	**المقام الإنساني**	.106	

للتواصل وطلب أي كتاب من د. سعد جبر - الجزائر: 00213673956106 - saadjabr@gmail.com

تم بحمد الله